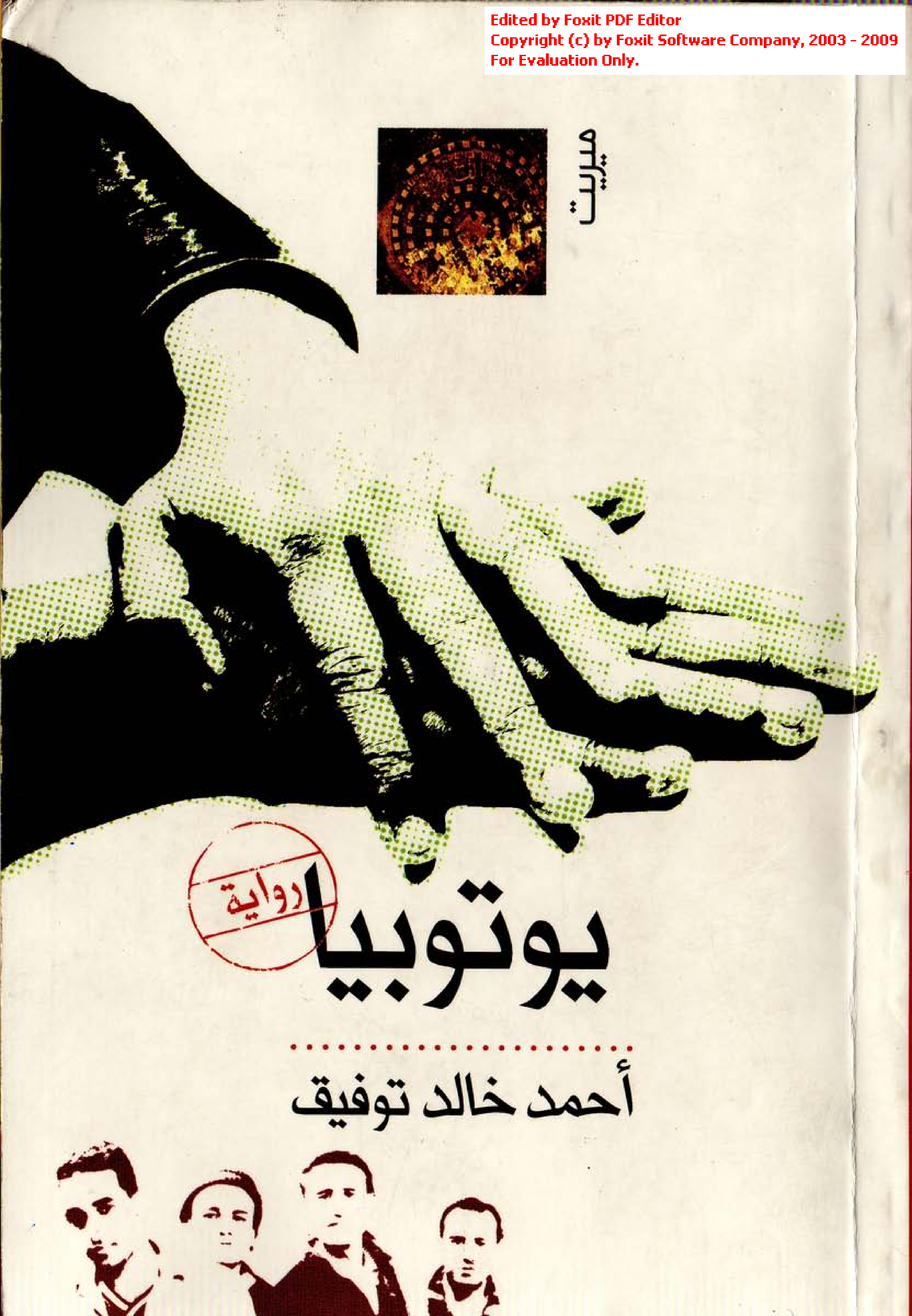

ميريت
رواية
يوتوبيا
أحمد خالد توفيق

يوتوبيا
رواية

أحمد خالد توفيق

الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٧٣٩٣

الترقيم الدولي: 977-351-391-2

أحمد خالد توفيق

يوتوبيا

رواية

دار ميريت
القاهرة 2008

يوتوبيا المذكورة هنا موضع تخيلي، وكذلك الشخصيات التـــي تعيش فيها ومن حولها، وإن كان المؤلف يدرك يقينًا أن هذا المكان سيكون موجودًا عما قريب. أي تشابه للمكان والشخصـــيات مع أماكن وشخصيات (في الواقع الحالي) هو محض مصادفة غير مقصودة.

حقاً إنني أعيش في زمن أسود..

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..

الجبهة الصافية تفضح الخيانة..

والذي ما زال يضحك..

لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب ..

أي زمن هذا ؟

برتولت بريخت

الجزء الأول

الصياد

-1-

كأنـــه الملصـــق الشـــهير القديم لفيلم الفصيلة .. هذا ما جال بذهني وقتها ..

السبب هو أنني أعلق هذه الصورة فوق فراشي ..

ولـــيام دافو ينظر للسماء – التي لم يعد يفصله عنها شيء – رافعًـــا ذراعيه كأنه في صلاة أخيرة، وقد جثا على ركبتيه بعد ما مزقته الرصاصات .. عندما يصير الموت أكبر من الحياة ذاتها.. عندما يصير الموت ضربًا من الجمال الفني ..

المشهد كان مهيبًا خاصة أنه ليس على شاشة التلفزيون.. كل شيء حقيقي مروع قاس .. و..

وفاتن..

لا تنكرن هذا من فضلك..

رأيـــته وهـــو يـــتوقف وقد أنهكه التعب .. بفقر الدم والجوع اللذين يفتكان به لا يمكنه أن يخوض هذه المطاردة للنهاية.. رأيته ينحنـــي ليلصـــق كفيه بركبتيه طلبًا للهواء، ثم رأيته ينظر لأعلى بيـــنما الهليوكوبتر تدور حوله في تؤدة ودون قلق .. إن معها كل الوقت .. لا يوجد هدف أوضح من رجل مجرد من السلاح وسط رمـــال الصحراء .. رجل أنهكه الركض ...رجل أنهكه الجوع .. رجل أنهكه القنوط ....

لا تقاوم يا أحمق !... ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العـيش مـع الأغيار ؟.. ما الذي لم تحققه في سنواتك العشرين السـابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيًا ؟... فرارك هذا لا يختلف عـن فـرار الصرصور على جدار مطبخ، أو أميبا تنزلق تحت عدسـة مجهـر ... صرخة غريزة لا أكثر .. إنه تفاعل التحاشي الـذي زرعته الطبيعة فيك، وعليك أن تتعلم كيف تهمله كي تظفر براحة استحققتها...

انطلقـت الرشاشات فنظر لأعلى .. نعم .. هذه الطلقات من أجلك أنت ..

ترسـم ذلك الخط الطويل على الرمال .. الخط الذي يمر بك أنت ...

وليام دافو في ملصق الفصيلة ...

خطـر ببالـي إن مخرجـي السينما حمقى عندما يظهرون المصـاب بالرصاص يسقط على الأرض فورًا .. كلا .. لقد نظر لأعلى وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا ثم سقط على الأرض ووجهه في الرمال ..

شـهقت جرمينال رعبًا لكني لمحت في عينيها ذلك البريق .. بـريق إثـارة لا شـك فيها .. صدرها يعلو ويهبط .. وتلامست أصـابعنا حيث وقفنا هناك خلف السلك نرمق الهليوكوبتر تنخفض مبعثـرة سحب الرمال من حولها، ثم الحارس الأمريكي يثب منها ليـتفحص الجـثة .. يـركلها بطـرف حذائه ثم ينحني ليتحسس الشريان السباتي ..

يرفع سبابته لأعلى ويصيح: - "Lovely !!"

ثم يركض نحو الطائرة وفي ثوان يرتفع الوحش الأسطوري بعـد مـا أنهـى مهمة الصيد ... كل هؤلاء الحراس من رجال (المارينـز) المـتقاعدين ولا أعرف سبب ذلك، لكنهم بالتأكيد لا يفتقرون إلى اللياقة البدنية..

شهقت جرمينال رعبًا ..

شهقت جرمينال نشوة ...

الموت .. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد .....

أقف أمام المرآة ..

أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة .. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف مـثل ديـك بري ثائر.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودوو .. لست عابد شيطان .. فـي الواقـع أنـا لا أصدق وجود شيء على الإطلاق، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدري ...

الوشـم كـذلك غريب .. إنه يروق للفتيات هنا .. السروال المصمم بعناية بحيث يظهرك في مظهر أكثر فحولة، وهو قصير يظهـر ربلتـي الساقين .. أحيانا أمارس الحفاء لكن ليس اليوم .. أعلق القرط الجديد في غضروف أنفي والقرط الآخر في حاجبي.. لـن أضـع حلية اللسان اليوم .. ثم بصبر أقوم بتلوين أسناني .. اللـون الأحمر للنابين والأصفر للقواطع .. الأزرق للضروس ..

هذه الصبغة ممتازة ولا تزول بسهولة .. يقولون إنها غير سامة..
من يبالي بهذا ؟.. ليتها كانت سامة ..

أضـع العدسـات الملتصـقة الجديدة التي تجعل لون العينين أبـيض .. تأثيـر مثيـر للفتيات أن ترمقهن بعيون مبيضة كأنك الموت .. هذا يقهرهن فعلاً...

أتأكد من أن الجرح على جبيني مفتوح .. أعالج حافته بعناية ليـبدو داميا .. إن الجروح مثيرة بلا شك .. ظهرت هذه الموضة مـنذ عامين وصار لها متخصصون .. المهم أن يبدو الجرح بشعًا قـدر الإمكان ويبدو صناعيًا كذلك حتى لا يشمئز من يراه .. هذا فن حقيقي ..

هـذا الجـرح أجراه لي طبيب إسرائيلي متخصص في هذا الفـن.. يقـول إنه درسه في نيويورك .. كان اسمه (إيلي)، وكان شـابًا ظريفًا .. قال لي إن أباه أصيب بجرح مماثل في حرب عام 1973 مع المصريين، وسألني إن كنت أذكر شيئًا عن الموضوع .. قلـت لـه إن لـي عمًا توفي في هذه الحرب، لكني لا أعرف التفاصـيل ... هـذه أمور مر عليها خمسون عامًا ... لا أعرف لمـاذا – في حقبة ما – كان المصريون يكرهون الإسرائيليين ؟، لكني لا أهتم بفهم هذه الأمور .. ربما ذهبت للحرب لو طلب مني هـذا لسبب واحد هو كسر روتين الحياة .. أن تمشي وسط طلقات الرصـاص في صحراء تتناثر فيها جثث الموتى !... كم أن هذا رائع ..

* * *

في (يوتوبيا)....

حـيث يتوارى الموت خلف الأسلاك الشائكة، فلا يصير إلا لعبة يحلم بها المراهقون ...

(يوتوبيا)...

ستة عشر عامًا من عمرك وأنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا .. أنـت مـواطن (يوتـوباوي) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل، فصـرت لا تعـرف الأمريكي من المصري من الإسرائيلي ... صـرت لا تعـرف نفسـك من الآخرين .. لولا بقايا الشهوة في عروقك لما عرفت الذكر من الأنثى ...

مـن أنـا ؟.. دعنا من الأسماء .. ما قيمة الأسماء عندما لا تختلف عن أي واحد آخر ؟

قال لي سالم بيه:

ـ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."

قلت له إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي.

أنا لم أعد طفلاً... لقد تجاوزت السادسة عشرة .. قرأت كل كتاب وقع في يدي حتى اكتفيت.. إن الكتب سلعة نادرة هنا لكني وجـدت كنزا منها عند (سالم) بيه رئيس تحرير تلك الجريدة الذي يعـيش على بعد مائتي متر من بيتي . لديه كتب كثيرة جدًا، وقد بدأت القراءة على سبيل التحدي لأن (مراد) لا يقرأ وكذا (لارين). من الجميل أن تفعل شيئًا لا يطيقانه ..

لسبب ما عشقت هذه الطريقة ووجدت فيها عوالم سحرية أنفذ إليـها كلمـا أردت، وكان سالم بيه يرمقني في دهشة كلما زرت مكتبته ويقول:

ـ"صدقني يا بني .. لا شيء في هذه الكتب يهم .. أنا أقتنيها لأنها تجعل منظر المكتب أنيقًا، لكن الحياة هي المعلم الوحيد لك"

لـم أكـن أرد .. فقـط كنت آخذ منه عشرة كتب في المرة، وأناولـه بعـض شرائط (اللييبيدافرو) التي سرقتها من أبي. سالم أرمـل لـم يتزوج ثانية .. هكذا يمكنني أن أخمن ما ينوي عمله باللييبيدافرو. وبهذا قرأت قبل سن السادسة عشرة معظم ما وجدته مـن كتب فلسفة ودين وروايات .. لم أحب قط قراءة السياسة ولم أهـتم بهـا وكـذلك الـتاريخ .. قـرأت الكثير كذلك على شبكة الإنتـرنت، ويبدو أنني قرأت أكثر من اللازم لأنني لم أعد أطيق رؤية كتاب آخر .. لهذا السبب أنا أكثر ثقافة من أقراني بلا شك..

في سني الصغيرة نسبيًا هذه كونت قناعة لا بأس بها هي انه لا جديد تحت الشمس ولا يوجد شيء واحد يمكن تعلمه بعد هذا .. هـناك خلـل اجتماعـي أدى إلى ما نحن فيه، لكنه خلل يجب أن يسـتمر .. كل من يحاول الإصلاح يجازف بأن نفقد كل شيء . هـذا وضـع شـبيه بالمكارثية في الولايات المتحدة، عندما شعر الأمـريكان فـي القـرن الماضي أن عليهم أن يقهروا كل نزعة يسارية لأنها تهدد كيانهم ذاته .. هذا ما حكاه لي سالم بيه ..

عاشـرت كـل فتاة راقت لي، وجربت كل أنواع المخدرات حتـى (الفلوجسـتين) الجديد الوارد من الدانمرك، الذي له رائحة

اللـيمون .. يقولون إنه باهظ الثمن لكن ما معنى باهظ الثمن ؟.. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها .. ما اعرفه هو أنه يأخذنـي بعـيدًا بمجـرد أن تضـع قطرة منه على جلد ساعدك، وعندها ترى تلك النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه .. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد ..

كنت قد بدأت تجاربي بالماريجوانا ... لا بأس بها .. جربت عقـار (إكسـتازي) وجربت LSD .. مشكلة هذا الأخير هي أنك بالفعـل لا تضمن أن تظل حيًا حتى تفيق .. من كل مجموعة لابد مـن واحـد لا يـتعاطاه كي يراقب الآخرين، ويطلقون عليه اسم (حـارس الـرحلة) .. عندما تتسلل الأيوفوريا إلى عقولهم يكون الوثب من الشرفة أو إشعال النار في النفس أو التحديق في قرص الشمس حتى العمى أمورًا منطقية جدًا ... هذا مثير لكني لا أحب أن أصير كفيفًا ما تبقى لي من عمر ...

جربت عقاقير كثيرة جدًا .. نبتاعها من الحراس الأمريكيين، ولكـن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة .. ثمـة جزء مهم من اللعبة هو التحريم والندرة.. أن تتعاطاها خائفًا .. تتعاطاها قلقًا بصدد الجرعة التالية .. عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها ... تصير مملة سوقية ..

لـم يعـتد أبـواي مراقبتي بهذا الصدد ... لا احد يتدخل في حياتـي على كل حال .. من حقي أن أتعاطى أي شيء بأية كمية وبأي ثمن، وإلا فما كان عليهما أن ينجباني ...

ليست الأبوة عملاً عظيمًا لهذا الحد .. بوسعي أن أكون أبًا لألف ابن لو أعطيتني ألف امرأة، ولأكونن لك شاكرًا ...

اليوم أخبرت (لارين) أن (سوزان) حبلى ...

لقد صار هذا روتينًا في حياتنا .. لا أعرف سبب الخصوبة التي رزقتني بها الطبيعة .. أبي لم ينجب سواي ولا أعتقد أنه كان يقدر على إنجاب آخرين، لكني جئت الكون كارثة حقيقية .. ألمس الفتاة فتأتيني بعد شهر لتقول إن الأعراض زارتها .. ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض وتألفها .. والنتيجة واحدة على كل حال .. سوف آخذ من لارين شيكًا وأعطيه للفتاة .. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس ... جراحة يوم واحد تنتهي سريعًا . فقط تضطر الفتاة للحياة بلا جنس لمدة شهرين وهذا ممل بحق ...

(سوزان) .. (كاتي)... (مايا)... (جرمينال)... لكني أفضل الأخيرة لسبب لا أدريه .. ليس الحب طبعًا .. مثيرة جنسيًا ؟.. ربما .. لكني لم أعد أعرف إن كانت الفتاة مثيرة أم لا لأنهن يتشابهن في كل شيء..

قالت لي لارين في ضيق:

ـــ"ألا تفعل شيئًا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات ؟.. لقد صار هذا مملاً..."

قلت وانا أفرد ساقي على المنضدة أمامي:

ـــ"ربما كنت شهوانيًا كالخنازير.. هذا ليس ذنبي.. إنها الهرمونات"

ـــ"ليت الأمر كذلك، لكني بالفعل لا أتصورك تشعر باشتهاء أو رغبة .. أنت تفعل هذا بداعي الملل لا أكثر .."

قلت بذات اللهجة:

ـ"ربما كنت ملولاً .. هذا ليس ذنبي كذلك"

وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية ؟.. تنام .. تتعاطى المخدرات .. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك .. تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل... تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيًا ساديًا).. لو كنت تعرف طريقة أخرى يمارس بها المرء حياته فلسوف يسعدني أن تقولها ..

أنا وجدت طريقة .....

أنا لم أعد طفلاً كما قلت لك.. (رامي) خاض تجربة الصيد ومعها ذاق الكثير من المرح.. (شادي) فعلها .. (أكمل) جربها ولم يستطع أن يخفي شيئًا عنا .. لقد عرض علينا التذكار الذي جلبه من هناك، ويبدو أنه كان تحت تأثير البانجو، ذلك المخدر الرديء الذي كانوا يتعاطونه في أوائل القرن .. طبعًا في العام 2020 صار الفلوجستين هو اسم اللعبة ..

قررت أن أجرب بنفسي ..

إنها (يوتوبيا)... حيث يضنيك البحث عن طريقة تزجي بها كل دقيقة من حياتك ....

-2-

أنا أعرف لماذا فعلها (راسم)...

ستة عشر عامًا .. وقرون من الخبرات المتراكمة ..

مثل أباطرة الرومان قد جربت كل شيء وعرفت كل شيء.. ليس هناك من جديد يثير فضولك أو حماسك في (يوتوبيا) .. لا شيء يتغير .. أحيانًا يخيل لي أننا معتقلون وأن الذين بالخارج هم الأحرار .. يذكرك الأمر بمعسكرات الاعتقال النازية التي تراها في أفلام الحرب ..

(يوتوبيا)... المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه ..

يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابات العملاقة .. السلك المكهرب .. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين .. أحيانًا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل من دون تصريح، فتلاحقه طائرة الهليوكوبتر وتقتله كما حدث في ذلك المشهد الذي لا يفارق خيالي..

بعد هذا منطقة الحدائق .. منطقة المدارس المخصصة لإقناع الآباء أنهم ما زالوا كذلك.. منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي .. البعض هنا ما زال مصرًا على أن يخاطب ذاتًا عليا لا يراها، ولكن جيل الشباب قد تخلص من هذه العادة على كل حال .. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلك هو خشيتهم من أن يفقدوا كل شيء في لحظة .. أن يضيع التميز .. أن يجدوا أنفسهم في الخارج . إنهم لم يشعروا بعد بأنهم يستحقون ما هم فيه، بينما جيل الأبناء جاء الدنيا معتبرًا أن كل شيء من حقه. الكبار على كل حال قد كفوا عن نصح أبنائهم بأن يحذوا حذوهم .

هناك سبب آخر مهم في رأيي، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع .. الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور. صورة الحاج (عبد السميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين والشمال، وعلى وجهه ابتسامة وقور متئدة. رائحة عطره الثمين الفاغم ومسبحته الذهبية .. يبدو أن هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلاً. أنا قرأت في الأديان قليلاً، وارتبطت فكرة الزهد بالورع في ذهني، دعك من أننا نعرف بعضنا .. كل هذا الورع لن يقنعني بأنهم لا يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الوقت .. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار وأحلامهم وآمالهم

وكبريائهم وصحتهم، لهذا يبدو لي ما يقومون به غريبًا لكنه شأنهم على كل حال.

منطقة المولات .. هنا يمكنك أن تبتاع الفلوجستين بشكل غير رسـمي مـن بعـض رجال الأمن .. ثم ترى القصور .. قصر (علوي) بك ملك الحديد .. قصر (عدنان) بك ملك اللحوم .. قصر أبي ملك الدواء.. ثم المطار الداخلي .. هناك مطار طبعًا حتى لا تضـطر للخروج .. في الماضي كان يسيطر على قومي هاجس الهـرب للمطـار لو أن الآخرين بالخارج ثاروا .. رحلة المطار سـتكون شاقة ومريعة وخطرة .. سوف يعترض الأغيار طريق السـيارات ويمزقون من فيها .. أنا أعرف هذه الأمور لأنني أقرأ كثيرًا .. القصص كثيرة بدءًا بالثورة الفرنسية حينما جاب الرعاع شـوارع بـاريس وهـم يعلقون ثديي الأميرة (دي لامبال) على رمحـين، وانـتهاء بالثورة الإيرانية في سبعينات القرن العشرين؛ عـندما وجـد مدير (السافاك) – على ما أذكر – سيارته محمولة فـوق الأعناق وهو فيها، من ثم لم يجد حلاً إلا أن يدس المسدس فـي فمه ويضغط الزناد .. رباه !... حتى وأنا أكتب هذه الكلمات شـعرت بقشـعريرة لـذة !... مسدس في فمك .. معدن بارد .. وضغطة تنهي كل شيء !..

خشـية من رحلة المطار هذه قرر قومي أن يبنوا مطاراتهم الخاصـة داخـل مجتمعاتهم .. مع الوقت لم يعد هناك خطر من الثورة، لكن المطارات ظلت في مكانها على سبيل الترف ..

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .. حتى إفراغ مثانتك في حوض المطبخ يبدو متعقلاً مملاً...

المجلـس .. دخـان التبغ ينعقد .. المكتب العملاق في بناية الاتحـاد، ونظـرة الحكمـة في عيون الكبار ... دقات الساعة .. كلمات .. كلمات .. سمعتها حتى لم تعد ذات معنى ..

* * *

ـ"نحن أسرة واحدة .. الخ ... لسنا مثل الأغيار ... الخ ...."

للمرة الألف ...

هـو ذا (راسم) يتظاهر بالمبالاة .. يمزجها بالخجل والندم .. أتحـدى أن تجـد عاطفـة واحـدة سبيلها إلى هذا الوجه الميت المتصـلب .. عيـنان ميتتان تذكرانك بعيون القتلة في ذلك العالم الخارجـي عندما تقتنصهم عدسات الكاميرا .. رجل يقتل زوجته وعشـيقها ثم يجلس على المقهى .. امرأة تقتل طفلة من أجل قرط لا يسـاوي أكثر من مائة جنيه .. ثم تظهر الصورة في صفحات الحوادث .. عندها سوف ترى هاتين العينين ..

لكنه كذلك ـ راسم – يتكلم .. الأحمق يتكلم:

ـ"حقًا لا أعرف ما دهاني كي ......"

للمرة المليون ....

يقـول الحكيم الأكبر بصوت رنان يروق له شخصيًا من دون شك:

ــ"نحن لا نقحم أي طرف في مشاكلنا .. سوف يتعهد (عزام بك) بدفع ثمن الــ ....الخ .. ابنك هو ابني والعكس .. الخ ...."

و(عــزام بــك) يــتعهد في وقار بدفع ثمن الــ ...... وهو يداعب حبيبات مسبحته الذهبية ...

جلســة عائلــية تضم علية القوم في يوتوبيا، فهذا المجتمع قد أفــرز قوانينه الخاصة ومحاكمه. هناك شاب قد أخطأ أو فعل ما يــوجب حــنق الكــبار عليه .. الأخطاء هنا هي أن تدمر الملكية الفــردية لآخر من يوتوبيا أو تسطو عليها .. (راسم) قد أفرط في الشــراب فدمــرِ جزءًا من مول (إليت) الخاص بمصطفى بك .. ربمــا سرق شيئًا .. لا أحد بحاجة للسرقة، لكنك بحاجة إلى إثارة وتوتــر وإثم السرقة .. الكلبتومانيا أو داء الولع بالسرقة هو سبب أكثــر الجرائم هنا، والباقي يحدث في لحظة سكر بين أصدقاء لم يعودوا كذلك ... لحظة جنون ..

هذه النزاعات تتم تسويتها في مجالس مشابهة .. وعامة يكون الــتفاهم حاضــرًا والاســتعداد للترضية متوافرًا .. لا أحد يريد للخلافات أن تخرج من يوتوبيا ..

الإثارة ..

الإثم ..

التعدي ..

خرق القواعد ..

التحدي ..

كسر التابو ...

المشاغبة ..

المخالفة ..

الهدم ..

التوتر ..

الأدرينالين ..

التغيير ..

التمرد ..

الانحلال ..

الصدمة ..

التميز ..

الدهشة ..

هذا هو اسم اللعبة ..

لأســباب كهــذه وفــي ليلة كهذه نام (راسم) مستسلمًا وترك لثلاثة من رفاقه أن يفعلوا به ما يشاءون ..

لأســباب كهذه يستحضرون الأرواح بلا توقف .. هي ليست أرواحًــا يــا حمقى .. إنه عقلكم الباطن يعبث بكم عن طريق ما يدعــى بــالــ ideomotor effect . لهذا يتحرك لوح الويجا لأنكم تريدون هذا..

ولأســباب كهذه يعبثون في المقابر ليلاً.. (أكمل) تحدث عن النكروفيليا أو مضاجعة الموتى، لكن الأمر لم يبد لي مغريًا وأعتقد أنك توافقني ..

لأسباب كهذه لا تستعصي أية فتاة عليك هنا أكثر من ثلاثة أيام ....وعندما تخضع لك لن تصدق مدى ما هي على استعداد لقبوله بسبب السأم .. لكن هذا لا يثير انبهارك ...

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .....

لأسباب كهذه أريد أن أجرب الخبرة العظمى ...

* * *

ظلام الليل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعرف أنني أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكن (جابر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

* * *

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلق ذقني .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة .. ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتثاءب .. أضحك .. أبصق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس اصبعي في حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي على البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكة .. أتقلب على البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعيات يوتوبيا ... كل مستعمرة لها جريدتها الخاصة لكن هناك جرائد عامة لا تستطيع قراءتها من فرط ما فيها من سخف.. أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات على جلدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحم شعارات تقول: اقتلوا البيض .. لا أعرف معنى هذا ولا من هم البيض لكنهم هكذا يفعلون في السينما .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم.. الإيقاع الجديد الذي ظهر منذ عام .. الكبار يشعرون أنه مجرد صراخ مجنون ويترحمون على إيقاعي الهيفي ميتال والديث ميتال الراقيين اللذين اندثرا .. أرقص .. أقيء .. آكل من جديد ..

ساعة واحدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

* * *

في يوتوبيا ما زالت الأم هي الأم .. لا يمكنك التخلص منها

(لارين) عائدة من المول حاملة عدة أكياس تحوي ما نحتاج له .. أشياء تؤكل وتشرب وتدهن وتشم وتدهن تحت الإبط وتطلى بها الأظفار .. أعرف أن أكثر ما ابتاعته لا حاجة لنا به .. سوى نتخلص من أكثره .. إنه الملل .. إنه الإحباط .. لا أعرف الكثير عن حياتها الجنسية، لكني أعتقد أن مراد لم ينم معها منذ قرون .. لابد أنه ملها إلى درجة أن الليبيدافرو ذاته لم يعد مجديًا معها.. عندما لا يضاجعك أحد فأنت تبتاع أشياء لست بحاجة لها ..

عندما لا يضاجعك أحد فأنت تتعاطى المخدرات خلسة وتشرب الكثير من الخمر .. عندما لا يضاجعك أحد فأنت تتدخل في أمور الآخرين .. قالت شيئًا عن القيء على البساط وطلبت من الخادمة أن تنظفه .. قالت إن الفلوجستين سوف يقتلني .. قالت إنني أبدد قواي .. قالت . قالت ....

بلا مقدمات قلت لها:

ـ"أنا راغب في تجربة الصيد .."

شهقت ......

قالت في ذعر وقد اتسعت عيناها:

ـ"هل ينقصك شيء ؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري يوتوبيا كلها .."

ـ"وما حولها .."

ـ"لديك من الفتيات ما يشبع شهوات سلطان فحل من سلاطين ألف ليلة وليلة.."

ـ"والفتيان أيضًا.."

ـ"لديك من وسائل التسلية ما يسري عن جيش من اليتامى الباكين"

ـ"وأحفادهم كذلك .."

ـ"إذن ما المشكلة ؟"

ـ"المشكلة هي هذا كله .. لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه ولم أظفر به .."

قالت في هستيريا:

ـ"لو عدت للكلام في هذا الموضوع سأخبر أباك!"

(مراد) ليس هنا .. إنه في سويسرا يراجع أرقام حساباته .. هذا نشاط محمود على كل حال لأن هذا يعني انه سيضاعف ما أنفقه على الفلوجستين .. أحيانًا أتمنى ألا يضيع وقته ويرسل لنا النقود من الخارج ..

قلت لها في تحد:

ـ"(مراد) لا يتدخل في شئوني.. هو أذكى من هذا .."

قالت وهي تلوح بإصبعها في وجهي:

ـ"للمرة الألف .. اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس (مراد).. أنا أسمح لك بأن تناديني باسمي بدلاً من كلمة (ماما) لكي أحتفظ بصداقتك، لكن هناك حدودًا يجب ألا تتجاوزها ... وأنا لن اسمح لك بهذا .."

لكنك تدرك على الفور أنها ليست جادة ...

كل هذه الأعوام واسمه (مراد).. لا يمكن أن تغير هذا في لحظة لمجرد أنها قررت أن تلعب دور الأم الحازمة ...

لارين لن تقبل لأنها تريد التظاهر بأنها لا تقبل ..

مراد لن يقبل لأنه يجب ألا يقبل ...

إذن ...؟

-3-

عندما تنفتح المقابر وتخرج الشياطين ..
عندما تتناثر جماجم الأطفال في السهول ..
عندما تتلوث أجنحة الملائكة بالدم، وتمارس سندريلا البغاء
عندما يعلن بعلزبول أن الحين قد حان ..
عندها فقط يمكنني أن أغمض عيني مستريحًا ...
وأموت .....

من أغاني الأورجازم

* * *

تـندفع السـيارة التـي تحمل راسم وشادي وريري بسرعة جنونـية .. تـندفع بسرعة ثم تتوقف بفرملة مفاجئة تجعلها تدور كالنحلة حول نفسها ..

هـنا تندفع نحوها السيارة الفيراري التي تخص ماهي .. لو اصـطدمت بها لشطرتها نصفين ... لكن ماهي تجذب فرملة اليد في آخر لحظة لتدور حول نفسها مع عويل تسمعه يوتوبيا كلها..يا بـنت يـا ماهي!...يدير راسم محرك سيارته ويندفع فيوشك على دهـم واحـد مـن الأغيار العاملين هنا، لكن الأحمق وثب على الرصيف المرتفع ..

لسـبب مـا لا أفهمه يصر هؤلاء على أن يعيشوا .. فعلاً لا أمـزح هنا أو أبالغ. لو كنت من الأغيار لتركت عجلات السيارة تمر فوق أحشائي.

كانـت ماهـي قد فرغت من دورتها فانطلقت تلاحق سيارة راسم .. على الأرجح ستدمر السيارتان اليوم .. لكن المشكلة هي أننا لا نموت .. لا أعني أننا خالدون لكننا صرنا أكبر من المرض والحـوادث .. الأغيار يمرضون ويذهبون للعلاج في المستشفى، فتنقلب بهم السيارة التي ما زالت تعمل بالكيروسين في الترعة أو تصـطدم بشـجرة .. ليت الموت متاح بهذه السهولة هنا !.. إذن لكانـت الإثـارة عظمى ... لا أعرف السبب لكن الحوادث نادرة عندنا وعندما تقع لا تقتل أحدًا ..

مـن حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب .. غالبًا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة، لكنك للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم...

لماذا لا ننتحر ؟.. لا أعرف .. الانتحار يبدو سوقيًا و(بلدي) جـدًا .. يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار .. الفتى الفاشل في حبه يحرق نفسه .. يا للسوقية ..!.. كيروسين وضوء خافت وحي شـعبي ودجـاج .. بالـذات الـدجاج ! .. كل هذا يجعل معدتي تـتقلص.. الأب الـذي فشل في إطعام أطفاله .. الفتاة التي تبتلع الأسـبيرين .. نحن أكبر وأرقى من هذا الهراء .. لابد أن يكون الموت أنيقًا مسرحيًا..

موتك وموت الآخرين متساويان .. إذن فليمت الآخرون .. على الأقل يمكنك أن تراهم وهم يموتون بدلاً من أن يروك هم ..

* * *

أقدم لك (مايك رودجرز) قائد رجال الأمن .. رجل أمريكي من ميسوري لطيف المعشر له شارب أشقر رفيع.. قَصّة (الطاقم) crew cut المميزة والعضلات البارزة وطرف الفانلة الخضراء الزيتية البارز من السترة. معه أستمتع بالكلام بالعامية الأمريكية ذات اللكنة الريفية الممطوطة كأنه خوار بقرة كسول ترعى في مرج، مع استعمال الكثير من الشتائم البذيئة التي تضحكه .

(مايك) كان من المارينز، وقد حارب في فيتنام في أوائل هذا القرن .. لا .. آسف .. حارب في العراق .. أخلط بين العراق وفيتنام كثيرًا فهما بلدان بعيدان قصيان كانت للأمريكان تجارب قاسية فيهما .. قال لي ذات مرة ونحن نتعاطى الفلوجستين:

ــ"كانت غلطتنا في العراق أننا تواجدنا وسط الناس أكثر من اللازم .. سرعان ما صححنا هذا الخطأ وانسحبنا من المدن لنكثف وجودنا في قواعد مغلقة محصنة حول منابع النفط .."

ــ"معلوماتي أنكم هزمتم في العراق .."

ضحك كثيرًا ثم استجمع أنفاسه وقال:

ــ"أنت تتكلم مثل الأوروبيين .. بدأنا الحرب للإطاحة بالطاغية والسيطرة على النفط وتحويل ذلك البلد الغني إلى أشلاء .. حسن .. فعلنا هذا كله حرفيًا فهل يوجد اسم آخر للنصر ؟"

ــ"هل كان النفط بهذه الأهمية ؟"

ــ"كان .. كم من حروب خضناها بسببه .. !.. ثم ظهر البايرول فجأة من سماء صافية ..ذلك الكيميائي الأمريكي الذي توصل له عام 2010 نال جائزة نوبل .. هنا فقط أمكننا أن ننسى الشرق الأوسط وأن نخرج ألسنتنا لشيوخ البترول ونخبرهم برأينا الحقيقي فيهم .. يمكنهم أن يشربوا بترولهم لو أرادوا، لكن الحصول على البايرول له ثمن ..!"

ــ"كان هذا عندما ابتعتم كل الآثار المصرية ؟"

ــ"نعم .. لم يكن لدى المصريين ما يُباع سوى الماضي وقد اشتريناه، ودفعنا ثمنه بالبايرول الذي احتكرته يوتوبيا والمجتمعات المماثلة.. عقد لمدة خمسين سنة يكفل لكم البايرول اللازم للحياة.. كيف تحسب سياراتكم وطائراتكم هذه تتحرك ؟... كل السيارات والطائرات تتحرك بالبايرول منذ عشرة أعوام .. السيارات والمحركات التي تتحرك بالبترول قد انتهى عهدها أو كاد .. لقد صار البترول رخيصًا كالماء، لكن المشكلة هي ندرة الآلات التي تعمل به !"

لم يكن هذا الدرس التاريخي يعنيني في شيء ... لا يهمني كيف كانت الأمور ولا كيف صرنا ما نحن عليه .. ما يعنيني هو ما نحن الآن وما سنكون ...

نحن الآن بصدد الخدمة الأهم التي سيقدمها لي ....

سألته عما إذا كان بوسعي أن أجرب الصيد.. قدمت له أسبابي التي تتلخص في ثلاث نقاط: الملل ثم الملل ثم الملل ..

تغيير أسلوبه ووضع حاجز الكلفة الزجاجي الرسمي بيننا وقال في حزم:

ـــ"مستحيل .. ولو حاولت لمنعتك .. إن الظروف خطيرة هذه الأيام والمغامرة غير مأمونة"

قلت في ضيق:

ـــ"منذ ولدت تقولون إن الظروف خطيرة هذه الأيام.. لا شيء يحدث .. هؤلاء الذين خارج الأسوار خراف لا أكثر .. صدقني"

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــ"لو اجتمعت الخراف الغاضبة على طفل لمزقته تحت أقدامها .."

ـ"هل سمعت من قبل عن خراف غاضبة ؟ .."

ـــ"هم فقدوا القدرة على الغضب، لكنهم كالخراف يهتاجون أحيانًا بلا سبب ولا مبرر واضح .. ونحن نعيش إحدى هذه اللحظات .."

ثم نفث دخان التبغ وقال في ملل:

ـــ"اسمع .. لن أسمح لك ما لم أتلق أمرًا صريحًا من مستر (مراد)"

وكنت اعرف أن مستر (مراد) لن يوافق .. هو لا يرغب في المجازفة بوريثه الوحيد ...

* * *

هكذا جلست ذات ليلة مع باقي الشلة نتعاطى الفلوجستين..

رائحة الليمون الواهنة تملأ المكان ...

نجلس على الأرض .. يمرر احدهم الأنبوب الزجاجي الشفاف .. فيه قطارة صغيرة تملؤها ثم تسكب ثلاث أو أربع قطرات على جلد ساعدك .. ناولها لمن بجوارك ... ثم انتظر ... انتظر حتى ترى الوهج الأخضر يتراقص ...

قطّر كل روائح الكون .. قطّر عبق السراخس في المستنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطّر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطّر البخور الذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطّر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطّر عبق كل غانيات باريس راقصات الكان كان .. قطّر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطّر الأحراش ذاتها .. قطّر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطّر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

الآن أنت لم تعد هنا ... الآن أنت سيد المكان والزمان والكون ذاته ..الآن كل ما حلمت به موجود هنا معك ... يمكنك أن تشرب الأفكار في كئوس، وتصب الخمر في دهاليز عقلك .. يمكنك أن تلتهم الروائح وتراها .. يمكنك أن تشم الضوء .. كل ما خشيته رحل إلى غير رجعة .. أفكار عبقرية تخطر لك لكنك تنساها عندما تتمعن فيها .. عبارات مزاح طريفة جدًا تتبخر قبل أن تخرج من فمك .. لكنك تقدر أنهم سمعوها .. لهذا تضحك ..

لهذا يضحكون ... بعد قليل يأتي الذهول وتشخص عيناك .. هذه هي اللحظة .. إنه (النفق) الذي لن تخرج منه إلا بعد ساعات ...

أشرت لـ جرمينال كي تقترب مني .. كانت شاحبة قليلاً بعد جراحة الكحت والتفريغ التي أجرتها الأسبوع الماضي للمرة الثالثة للخلاص من ابن جديد لي، وكانت في حالة انسجام تامة فلابد أنها تغوص وسط النيران الخضر الآن .. قلت لها:

ـ"لقد قررت أن أخوض التجربة .. أريد أن أحضر تذكارًا"

شهقتْ في جزع وإن لم يبد أنها مذعورة حقًا فأضفت:

ـ"نحن هنا ذقنا كل المتع .. نفس ما مر به نيرون وكاليجولا .. لم يعد من شيء يضفي الإثارة على الحياة مثل أساليب هذين.."

قالت هامسة:

ـ"لكن هذا خطر .. أنت تعرف هذا .. هناك يكرهوننا بجنون ولو رأونا بينهم فسوف ....."

ـ"هذا هو ما أريده .. الخطر .. الموت "

بدأ وجهها يتقلص من النشوة لسماع هذه الكلمة .. الخطر .. الإثارة .. كلمات لم تعد في قاموسنا..

ليس صيد البشر غريبًا إلى هذا الحد .. أنا قرأت عن الموضوع كثيرًا .. هل تعلم أن صيد قبائل البوشمن كان نشاطًا رياضيًا مسموحًا به في القرن الماضي ؟.. وفي عام 1870 انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد .....

برغم أن الصيد غير قانوني في يوتوبيا فإن الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنًا .. وهو شعار يوتوبيا العام:

افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا .. والأهم افعل ما تريد لكن أبقه سرًا حتى لا تضع على عاتقنا عبء أن نبدو حازمين، ولا تضع على ضمائرنا عبء أن نتظاهر بالشفقة

لكننا نحن الشباب صرنا نعتبر الصيد نوعًا من اختبارات الرجولة.. (راسم) فعلها .. تسلل ليلاً إلى منطقة من تلك المناطق المخيفة التي يعيشون فيها . أعتقد أن اسمها منذ عشرين عامًا كان (باب الشعرية) أو شيئًا من هذا القبيل .. اختطف واحدًا من هؤلاء الأغيار العاطلين وعاد به إلى (يوتوبيا)، وقضى ورفاقه أيامًا ممتعة من ملاحقة هذا المخطوف بالسيارات، ثم قتلوه واحتفظ (راسم) بيده المبتورة بعد ما قام بتحنيطها .. كل واحد من أصدقائي قام يومًا ما بهذه الرياضة: رياضة صيد الأغيار، وعاد منها بتذكار ثمين يريه لأمثالي ..

قلت لـ جرمينال:

ـ"الليلة ننطلق إلى الخارج لنأتي بواحد منهم .. ولسوف تأتين معي .."

كانت تحبني عندما أصدر الأوامر .. هذا يشعرها بالقهر ويدغدغ ماسوشيتها ..

عندما لا يصدر احدهم أمرًا لك طيلة حياتك .. عندما يدللك الجميع .. عندما تتحقق أتفه أحلامك، فإنك تعشق من يرغمك على شيء .. كنا نلعب تلك اللعبة كثيرًا .. نأمر الفتيات وعلى الفتاة أن تنفذ ما يُقال لها مهما كان .. أي شيء ..

لمعت عيناها حماسة ..

لكني كنت أفكر في خطة مناسبة .. ليس من السهل أن تتسلل لعالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول (يوتوبيا).. إن الفقراء وأبناء الأكابر يبدون متشابهين عندما تراهم في الظلام من طائرة .. طلقات في الظلام .. جثتين هامدتين وحادث مؤسف .. سوف يتم حل المشكلة في جلسة من جلسات الكبار وينال أبي عدة ملايين على سبيل التعويض . .. اعتقد أن هذا الحل يروق له لكنه لا يروق لي ....هذا كل شيء ......

ماذا أفعل ؟

4

غارقًا وسط النيران الخضر التي صارت علامة مميزة لعقار (الفلوجستين).. تلك النار الخضراء الباردة التي تسبح فيها وتتتشي ثم تخرج رأسك طالبًا المزيد، قلت لـ جرمينال:

ـــ"هل تعرفين أنهم هناك لا يستعملون أسماء لارين وجرمينال.. ؟.. يستعملون أسماء مثل (باتعة) و(زكية) و(عطيات).. "

وانفجرت ضحكًا .. لا أعرف السبب بالضبط لكن الأمر راق لي كثيرًا ..

قالت جرمينال وهي تدخن لفافة التبغ المحشوة الخامسة:

ـــ"أعرف هذا .. نراه أحيانًا في التلفزيون في تلك التمثيليات العتيقة"

الحقيقة أن لنا تلفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنت .. نظام الكابل وسينما المنزل .. هناك إقبال عال على أفلام الجنس والعنف والجريمة .. من الغريب أن الأغيار يقبلون على ذات الأفلام في تلفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف .. حب العنف هنا سببه الملل ..حب العنف هناك سببه الفقر والغل المكبوت .... لماذا كان أباطرة روما و عامة الشعب يحبون

مشاهدة العبيد يمزقون بعضهم ؟ .. لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمة ؟.. ليت أحد علماء الاجتماع يفسر لي هذا .. على قدر علمي يختلف مزاج الأباطرة تمامًا عن مزاج عامة الشعب، فلماذا يتفق المزاجان في شيء واحد هو القسوة ؟ ..

* * *

كانت العاشرة مساء وقد حان وقت التحرك .. لقد رسمت الخطة بعناية .. في الحادية عشرة تصل السيارة التي تنقل العمال لمناطقهم العشوائية .. نعم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمالاً لا نستطيع القيام بها .. يأتون صباحًا بحافلة خاصة ويعودون بها ليلاً، وهم تحت المراقبة في كل الظروف .. لا يتكلمون ولا يرفعون عيونهم لكنك تشم منهم خليطًا مزعجًا من المقت والخبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة .. سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش ... يومًا بيوم يفقدون جزءًا من آدميتهم حتى صاروا كائنات مريعة بحق ...

انتظرت مع جرمينال في الظلام قرب مكان تجمعهم .. وقعت عيني على رجل يقاربني في الحجم ووقعت عيناها على امرأة تقاربها في الحجم .. كانت الحيلة بسيطة بل هي أقدم حيلة في التاريخ ..

وقفت على بعد خطوات من الرجل أقضم شطيرة من الهامبرجر في تلذذ ..

رأيت عيني الرجل تتسعان وهو يرمق الشطيرة .. تحركت تفاحة آدم مع ابتلاع ريقه ..

قلت له في ترغيب:

ـ"هل تريد قضمة ؟"

نظر لي في حذر كذئب يدعوه أحدهم لقطعة لحم، ولم يرد .. نظرت حولي ثم قلت همسًا:

ـ"لا أستطيع أن أعطيكها هنا .. تعال خلف هذا الجدار .. لو رآنا أحد الحراس لكانت مشكلة لك"

ولم أترك له فرصة للتفكير .. أسرعت خلف الجدار القريب ووقفت ..

بعد دقيقة ظهر لي كما توقعت ولعابه يسيل وعيناه متصلبتان على الشطيرة:

ـ"هاتها ..!"

ما أقبح منظره !.. كل عالمه تلخص في هذه الشطيرة التي في يدي ولم يعد يعرف أي شيء عما يدور حوله ..

هنا دارت جرمينال بدورها حول الجدار، ثم هوت على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. لم يكن هذا سهلاً لأنها لم تعتده، وقد اضطرت إلى أن تهوي على رأسه مرتين لأن الضربة الأولى لم تكن حاسمة جازمة .. وعلى الفور تعاوننا في الظلام على نزع ثيابه وارتديتها أنا ..مزية هذه الثياب أن هناك بطاقة هوية في جيب كل منها .. هناك (كاسكيت) على الرأس ... لا بأس .. هذا يخفي معظم معالم الوجه ..

تناولت جرمينال الشطيرة مني وهي ترتجف ثم وقفت قرب المرأة المختارة ..

تكرر السيناريو بذات الخطوات تقريبا ... الاستدراج .. الجدار ... لقد هويت على رأس المرأة بقطعة القرميد، ثم جردتها من ثيابها لتلبسها جرمينال .. أخفينا ثيابنا الأصلية تحت حجر .... المرأة تلف رأسها بإيشارب وهذا من جديد يسهل الأمور ....

يا لها من مغامرة !

الآن فقط اشعر بالأدرينالين يتدفق في عروقي .... النشوة !

نظرت للسماء ورحت أعب الهواء في جرعات كبيرة ليهدأ قلبي قليلاً فلا يثب من صدري .. توقف !.. بالله عليك توقف !

الآن نصعد إلى الحافلة وقد تحولنا إلى رجل وامرأة منهم .. فقيرين كئيبين .. الثياب كريهة الرائحة خشنة، لكن من قال إن المغامرات مريحة ؟ ..

الحافلة تتحرك ببطء نحو البوابات الخارجية .. نقاط تفتيش.. جندي أمريكي يسلط الكشافات على وجوهنا .. لحظة الضعف عندما يرون ولا ترى .. لكنك تضع ثقتك في قذارة الثياب وفي غطاء الرأس ...

لا أحد يعرفنا في الحافلة لأن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون من يأتون ومن يرحلون .. عندما نرغب في العودة سيكون هذا أسهل لأنني سأتصل بأبي طالبًا أن يرسل لنا من يعيدنا إلى (يوتوبيا)..

حدث هذا مع (شادي) عندما وجد نفسه محاصرًا في (العتبة) عاجزًا عن العودة.. اتصل بأبيه ملك الاتصالات الذي أطلق بعض السباب، ثم أرسل له طائرة هليوكوبتر خاصة بالمارينز،

وكان المشهد دراميًا مروعًا عندما راحت الطائرة تحلق عموديًا فوق (العتبة) مطلقة رصاصها فوق الرءوس بينما تدلى رجال الإنقاذ بالحبال ليحملوا (شادي) وصيده ...

وارتفعت الطائرة فوق الرءوس كأنها إله وثني من آلهة الإزتك .. واو !.. أية إثارة !

همست جرمينال في أذني:

ـ"رائحة الثياب كريهة .. هذه المرأة لم تكن تستحم .."

أمرتها بالصمت .. لم يعد يحمينا الآن إلا حسن تصرفنا بعد أن خرجنا من البوابة، وبعد أن تفحص رجال المارينز هوياتنا دون ان ينظروا لوجوهنا .. إنهم لا يدققون فعلاً فيمن يخرج .. المهم من يدخل .. لكن ما يقومون به هو نوع من تأكيد الحضور لا أكثر .. فلتعرفوا من هو القائد أيها الرعاع ..

* * *

تنسحق الشمس إذ تطوها أقدام الكوكب الأحمر ..
تصرخ الملائكة خوفًا ..
أنت فريستي .. أنت لي ..
فقط عندما تصير جزءًا من خلاياي بعد الافتراس ..
عندها تعرف معنى الأبدية..

من أغاني الأورجازم

* * *

الليل والصمت وإثارة المغامرة .. والصحراء ... أعتقد انني غفوت لبعض الوقت ..

الرائحة الكريهة تدنو من جرمينال .. الرائحة الكريهة والبخر من فم تلفت أسنانه .. امرأة .. تشريحيًا هي كذلك ... أو كما يصف راسم مثيلاتها : هذا رجل مثقوب لا أكثر!

تقرب رأسها من جرمينال كأنها تنين يطل من المقعد الخلفي.. تهمس:

ـ"معك سيجارة يا شابة ؟"

مذعورة تهز جرمينال رأسها أن لا .. يا لسذاجة انعكاساتك!... لو أن كلبًا مسعورًا يتشممك لما تصرفت بهذا الشكل ...

ـ"معك أي شيء يؤكل ؟"

لسبب ما تعتقد هذه المرأة أنها تجلس خلف بوفيه مفتوح ...

تمد جرمينال يدها في الكيس الذي تحمله ولا شعوريًا تناولها بقايا شطيرة الهامبرجر ...

المرأة تقضم من الشطيرة في جشع.. تلوكها في تلذذ شبه جنسي .. تقول إنها لو وجدت سيجارة لصارت الحياة أروع ...

ـ"هل تعملين عند الحمزاوي بك ؟"

لا تعرف جرمينال ما تقوله لها ... تهز رأسها أن نعم .. تقول المرأة إنه وغد ولص وابن كلب .. الرجل صديق أبي لكنني أوافق على كل حرف .. لقد اقتصدتْ الكثير من الأوصاف ...

ألتفت لها وأقول في خشونة محاولاً التخلص من ثقل لغتي العربية:

ـ"كيف خمنت أنها تعمل عنده ؟"

ـ"لأنها شابة مليحة ولأنها تحمل هذه الشطيرة.. "

تمد يدها على شكل قمع وتقبض بأطراف أناملها على ذقن جرمينال .. ثمة لمسة غير مريحة في هذه الحركة تتجاوز السلوك الطبيعي ... لهذا تجفل جرمينال كأنها لامست ثعبانًا .. لابد أن الأظفار الطويلة تخدش جلدها الناعم ....

تردف المرأة:

ـ"يحب الشابات المليحات .. لديه جيش من الجواري .. ابن الزانية يضاجع ثلاث فتيات في فراش واحد أحيانًا .. مع انه تجاوز الستين لكنه ما يأكلونه .. إن الاستاكوزا وذلك الدواء الجديد يأتيانه يوميًا طازجين من فرنسا .."

كنت أعرف اسم الدواء الجديد لأن أبي يستورده .. (ليبيدافرو).. مستحيل أن تنطقه المرأة .. منذ أعوام كانت الفياجرا ثم جاء هذا العقار القادر على إتيان المعجزات .. لهذا لا يتوب رجال يوتوبيا أبدًا .. لا يشيخون ولا يهرمون، وشهوتهم للنساء أبدية كآلهة الإغريق، لكن الكبار لا يجدون فرصتهم إلا مع الأغيار على عكس الشباب .. أنت تظفر بالمرأة عن طريق فتوتك أو مالك أو نفوذك أو سطوتك... يملك الكبار السطوة والنفوذ والمال ولا يملكون الفتوة الطبيعية التي لا تصنعها العقاقير..

تقول المرأة:

ـ"ابن الزانية ينام مع ثلاث فتيات كل يوم، لكنه لم يلمس امرأته منذ عشرة أعوام .. تسألينني كيف أعرف هذا كله .. لا توجد أسرار هنا يا حبيبتي .. ما يدور بين الجدران هو تسليتنا

الوحـــيدة كما تعلمين .. لا تخجلي .. أعرف أنه فعلها معك .. لو أقســمت لـــي على المصحف أنه لم يفعل لما صدقت .. لن يصبر الحمزاوي بك أكثر من أسبوع على هذه البشرة الناعمة .."

ثم فرغت من الشطيرة فتجشأت بقوة ومسحت فمها وقالت:

ـــ"إنـــه منحط الذوق أيضًا .. (بيرمرم)... كنت أعمل عنده وأرادني .. أنا قبيحة كالقرد وليس في ما يجذب أي رجل .. لكنه كـــان ثمـــلاً وقـــد طلبني، كأن البلغم احتشد في حلقه واحتاج إلى مبصقة .. لا تستطيع المرأة منا أن تمتنع عن الحمزاوي بك .. لا أعـــرف السبب .. ربما هو الخوف .. ربما هي سطوته .. فكرة لذيـــذة أن هـــذا العمـــلاق الثري يريدك أنت .. المهم أنك تقبلين دائمًا.. لا تقولي يا شابة إن من يفعلن هذا مرغمات طيلة الوقت.. لا وحـــياتك .. للشـــرف حدود يتهاوى بعدها .. المهم أن الخنزير انفـــرد بي لحظات، ثم أدار ظهره لي وقد زالت شهوته فأدرك كم أنـــا منفرة.. هكذا تقيأ وركلني بقدمه ركلات متتالية حتى ألقي بي من فوق السلم مثل تلك الأفلام القديمة .. أفلام يوسف بك وهبي.. راح يسبني سبابًا مقذعًا ... أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل .. هـــؤلاء لم يأتوا من السماء .. كلهم جاء من أسفل أسفل الطبقات، لكننا وأهلنا كنا أغبياء كالبهائم بينما هم عرفوا كيف يعصرون من الزلط دهنًا ...."

ثم في ظلام العربة نظرت نحوي وقالت :

ــ"وأنت يا الجدع ..؟.. هل تعمل عند الحمزاوي بك كذلك ؟"

قلت لها في حذر وبذات الصوت الخشن:

ــ"مراد بك .."

حان وقت معرفة شيء جديد عن مراد .. أبي ..

أطلقت صهلولة مزقت صمت وظلام العربة وقالت:

ـــ"إذن أنـــت مـــنهم يا سيد الرجالة !!... هيء هيء !.... عرفت هذا على الفور عندما سمعت صوتك الناعم .. ما جمع إلا ووفق !... هي تعمل عند الحمزاوي بك وأنت عند مراد بك . لو حـــدث العكس لكانت مصيبة .. كان مراد بك سيضربها بالجزمة وكـــان الحمزاوي بك سيمزقك بالسياط .. هيء هيء !.... هكذا أنتما آخر انسجام .. الأكابر راضون عنكما !"

كانـــت معلومات عجيبة . وقد بدأت أتذكر سلوك مراد وأجد علامات استفهام لم ألحظها هنا وهناك ..

هـــل المـــرأة تطلق إشاعات لا نصيب لها من الصحة، أم إن الأمر كذلك فعلاً ؟..

ومـــاذا يهـــم ؟.. مـــراد هو الرجل الذي يصدر لي الأوامر لأرفضـــها ويعطينـــي المال .. ما أهمية سلوكه الأخلاقي ؟... أنا لست مسئولاً عن أخلاق أبي .. لن أناسبه على كل حال ....

هنا انخفض صوت المرأة وقالت في الظلام:

ــ"برغم هذا أنجبت منه .. لا يأتي العالم سوى الطفل الذي لا تـــريدينه وتدعـــين الله أن تزهق أنفاسه .. ابن حرام فعلاً.. كنت وحدي ساعة الولادة .. قطعت الحبل السري بسكين صدئة وجدتها جـــوار الفـــراش ثم رفعت الرضيع من قدميه وتأملته .. كتلة لحم ملـــوثة بالـــدم المتخثر.. ابن الحرام يطالب بحقه في الحياة . ابن

الحــرام يطالب بالغذاء والهواء والدفء والحنان ... لم يكن هناك ما أفعله له .."

هنا فقط علا صوت جرمينال تسأل في قلق:

ـ"ماذا فعلت ؟"

تضــحك المــرأة .. تضحك .. صدرها يترجرج بما فيه .. صدرها يتحشرج .. تسعل .. تبصق ...

ثم تلقي برأسها إلى الخلف ويتصاعد شخيرها...

ظــلال الطــريق تركض على ملامحها القبيحة التي زادتها المرارة وعورة .. طريق حجري آخر محفور على قسماتها ...

تتصاعد النشوة في دمي .. دمي يغلي ...

كلماتهــا ألهــبت خيالي .. كل هذا الألم .. كل هذا الشقاء .. الموت .. القتل ....

مددت يدي واعتصرت يد جرمينال وعضضت لساني من ألم النشوة ... هذا كل ما أستطيع عمله الآن .....

-5-

الآن نحن ندخل أرض الأغيار ......

العــالم الآخر الذي تركناه منذ زمن، يوم توارينا خلف أسوار (يوتوبيا)..

شبرا ..

هكذا يطلقون عليها ...

شبرا التي لم أرها إلا في أفلام السينما .. للاسم رنين غريب فــاس فــي مســمعي .. لابــد أن له رنين سييرا مادري أو ريو جــراندي فــي مسامع الأمريكيين .. تتوقف الحافلة وسط الزحام ويتــرجل بعض الراكبين، فأشير لــ جرمينال كي تترجل معي .. هنا بداية لا بأس بها ..

أيــن ذهــبت تلك المرأة ؟.. لا أعرف .. هكذا تذوب الوجوه التي لا اسم لها في الظلام والزحام ...

خلــيط عجــيب من الروائح والأصوات والمشاهد .. الرائحة الأولــى والرئيســة هــي رائحة العرق .. في هذه الرائحة ذابت روائــح غريبة من المأكولات والوحل والفضلات البشرية وربما الدماء ..

هناك عربات تكدست فوقها أطعمة .. خلائط من الأطعمة .. هناك كومة أرز وكومة من مادة عجينية بيضاء أعتقد أنهم يطلقون عليها اسم (كسكسي) وبرتقال ويوسفي ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي .. منذ زمن صار هناك باعة جائلون للخمور، ولكن أية خمر هذه ؟.. زجاجة بحجم الكف ثمنها خمسون جنيه مع كل هذا التضخم !.. لو كان هذا بولاً لكان سعره أكثر من ذلك.. زجاجات عطر قديمة امتلأت بما لا يمكن معرفة كنهه .. أعتقد إن الكحول الأحمر عامل مشترك بين كل هذه السوائل .. قال مراد إن هذا – بيع الخمر في الشارع – كان عملاً لا يمكن تصوره منذ عشرين عامًا، لكن الأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء .... والأغرب أن الكحول الميثيلي لا يصيب هؤلاء القوم بالعمى كما يفعل في العالم كله.. لو كانت معدتهم من حجر فكبدهم من فولاذ وعصبهم البصري كابل كهرباء ..

الشطائر مشكلة أخرى ... كومة من الشطائر .. شطيرة مليئة بما يزعمون أنه كبدة وثمنها عشرون جنيهًا !... لو كانت هذه أكباد فئران لما أمكن بيعها بهذا السعر ..

الخلاصة التي توصلت لها بعد دقيقة في هذا العالم هو أن هؤلاء القوم يتظاهرون بأنهم أحياء .. يتظاهرون بأنهم يأكلون لحمًا ويتظاهرون بأنهم يشربون خمرًا، وبالطبع يتظاهرون بأنهم ثملوا وأنهم نسوا مشاكلهم ... يتظاهرون بأن لهم الحق في الخطيئة والزلل ..

يتظاهرون بأنهم بشر ...

* * *

الآن فقط افهم لماذا عزلنا أنفسنا في (يوتوبيا).. لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة .. منذ ثلاثين عامًا كان هؤلاء ينالون بعض الحقوق أما اليوم فهم منسيون تمامًا .. حتى الكهرباء والماء مشكلة فردية لكل منهم .. من استطاع أن يحصل على مولد أو يحفر بئرًا فبها ونعمت، وإلا فعليه أن يتحمل ..

الغريب أنهم تكاثروا بسرعة لا تصدق .. معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرًا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد .. ينجب الرجل عشرة أطفال يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع، لكن الزيادة مستمرة برغم كل شيء .. يبدو أنهم يعتمدون على الأعشاب والوصفات الشعبية اعتمادًا مطلقًا .. أبي يحتكر كل الدواء في السوق وأسعاره خيالية، لكن هناك دائمًا من يشتري .. لغز هذا البلد هو أن هناك من يشتري في كل وقت وبأي سعر، وهو ما يثبت لك أن (ماركس) أحمق على الأرجح عندما تصور أن التوازن سيأتي في لحظة لا يعود فيها الفقراء قادرين على الشراء ..

بعض هؤلاء القوم متدين، لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت .. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب .. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن

السبب – كما أعتقد – هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة . ان يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام يبتاعون شطائر من كبد الفئران ويشربون الكحول الأحمر .. إن الأمر يحتاج إلى عدد كبير من العمرات والأدعية كي تتجنب هذا المصير الأسود.. الخلاصة انه من العسير اليوم أن تجد متديناً بغرض التدين في حد ذاته ...

* * *

"واصل المعتمرون المصريون عمليات الهروب الجماعي المنظم داخل الأراضي السعودية، وفوجئ العاملون بأحد فنادق مدينة مكة المكرمة ومندوبو الشركة المنظمة للرحلة يوم الخميس الماضي بهروب جميع المعتمرين المقيمين بالفندق، البالغ عددهم 72 معتمرا ليلاً دون أن يشعر بهم أحد أو يشاهدهم أثناء خروج متعلقاتهم الخاصة. قال أسامة العشري وكيل وزارة السياحة: الغريب في الواقعة الثانية أن المعتمرين تركوا جوازاتهم وتذاكر السفر عكس الواقعة الأولي التي قام فيها المعتمرون بالاعتداء علي سائق الأتوبيس ومندوب الشركة المنظمة للرحلة، للحصول علي جوازات السفر.."

موقع مصراوي بتاريخ 26-8-2007

* * *

كنا نمشي وسط الجموع ذاهلين .. علينا ألا نلفت الأنظار لنا، لكني شعرت بضخامة هذه المغامرة التي ألقينا بنفسينا فيها ..

تشد جرمينال يدي في عصبية فأنظر إلى حيث تشير.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر .. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء .. أقاوم العصارة التي ارتفعت إلى حلقي وأجرها بعيدًا .. سوف تفضحنا بطريقتها الانفعالية الهستيرية هذه .. لو دقق أحدهم في وجهنا لرأى أننا لم نعرف الجوع يومًا ..

البائع ينادينا:

—"تعال يا أخ .. منذ متى لم تطه الخضار على (زفر) ؟.. هذه الجلود تؤدي الغرض تمامًا .."

يرفع سلخة من الجلد ويلوح بها على سبيل الترغيب ....

يبدو أن أرجل الدجاج رائجة كذلك .. الرءوس .. الأجنحة .. لكن أين الدجاج نفسه ؟.. حتى دجاجهم تحول فيما يبدو إلى عظام يكسوها الجلد فقط .. لا عضلات ولا أحشاء ..

طفل ضال أجرب يلتقط شيئًا من على منصة بيع ويفر به فتلاحقه اللعنات وتتطاير الشباشب خلفه ..

أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة .. هناك من يقول إن الجنيه كان أعلى سعرًا من الدولار يومًا ما .. لا أصدق هذا وقد صار الدولار يساوي ثلاثين جنيهًا .. هذا نموذج مخيف للتضخم لأن ثمن هذا القميص لن يتجاوز ربع دولار بحال . لسبب كهذا تجد أن أسعار الأشياء تحدد بمئات الجنيهات. وأعتقد أنهم يفضلون المقايضة على كل حال باعتبارها أقرب للحقيقة.

الآن نخـرج من منطقة السوق هذه كي نتوغل بين مجموعة مـن العشش الصفيح أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب .. الأرض مبـتلة تغـوص فـيها قدماك .. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجاري الطافحة .. أمشي في حذر لأن التعثر هنا نوع من الانتحار ..

علـى أبـواب العشـش تقـف نساء قذرات بشعات المنظر يضـحكن لـي في إغراء .. أعتقد أن أصغرهن تجاوزت الخمسة والثلاثـين منـذ زمن، لكنها لا تمارس مهنتها بسبب تأخرها في الزواج بل من أجل المال ..

على قدر علمي لم يصدر أي قانون بإباحة البغاء، لكنه صار ظاهرة حقيقية .. صار أقوى من القانون .. أقوى من العرف ...

أعـرف أن سن الزواج كان قد صار أربعين عامًا للفتاة ولم يعـد هناك سن زواج للرجل، ثم حدث أحد الانقلابات الاقتصادية إياها فصارت شروط الزواج أسهل .. يكفي أن تجد من تقبل بك، وعندها لا داعي للسكن ولا الراتب .. سوف يعنى كل واحد بنفسه والأطفـال سـوف يجدون رزقهم بشكل ما .. هكذا انخفض سن الزواج من جديد ..

كان هذا كله أقبح من اللازم ..

أبشع من اللازم ..

أكثر واقعية مما يجب ...

عـندما يـزحف القبح والعطن على كل الإثارة التي يولدها الخـيال .. تلتف الغصون الشائكة الطفيلية حول الثمار، وتزحف العقارب بين اللآلئ ...

* * *

كـان اسمها كاتي .. أمريكية هي .. أول فتاة عرفتها .. في سن الثالثة عشرة كانت هي الحلم الرومانسي الأبدي.. كانت أكبر مـن الحـياة ومن الواقع، ثم ظفرت بها في تلك الليلة فوق رمال الشاطئ المبتلة.. عندها ماذا عرفت وماذا رأيت وماذا شممت ؟.. هـويت من قمم الأوليمب لأزحف في الوحل، وعرفت أن الواقع أقبح مما تتصور ...

يجـب أن ننتهي من مهمتنا ونرحل .. فلنختطف من نختطفه ونفر ...

* * *

فتاة تنظر لي وتغمز بعينها غير مبالية بجرمينال التي تمشي جواري ..

هنا خطرت لي فكرة ..

هنا صيد سهل هش بينما الذكور يمكن ان يكونوا خطرين .. هم بالتأكيد خطرون ..

يـبدو ان جرمينال فهمتها هي الأخرى فابتعدت عني .. هكذا مشـيت وحيدًا إلى حيث الفتيات الواقفات يبحثن عن طالب شهوة، فانتقـيت بعينـي واحدة منهن .. لم اخترها إلا على أساس قوتها

عــدها عدة مرات كأنما هو يجرد محتويات خزانة الولايات المــتحدة، ثم بصق جانبًا ودس المال في حزامه .. ومن جديد لم يبد أنه يرانا أصلاً...

سألتني الفتاة وهي تفك تنورتها:

ــ"هنا ؟"

ــ"أفضل الابتعاد فأنا خجول .."

أطلقتْ صهلولة عالية رقيعة ومضت معي ...

فقــط بطرف عيني كنت انظر للخلف فأرى جرمينال تحاول اللحــاق بنا خائفة متعثرة .. وسط هذه الخرائب والفئران لابد أنها تعيش أسوأ لحظات حياتها ....

وأخيرًا صرنا وحدنا تقريبًا . فتحت الفتاة فمها لتتكلم:

ــ"هلم انته الآ ...."

لكنــي فــي اللحظة التالية انهلت على جذور عنقها بضربة سيف يد تعلمتها عندما زرت (كمبوديا)، فسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ...

وفــي اللحظــة التالية سمعت جرمينال تناديني .. بمعجزة ما اخترقت الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها ..

قلت لها لاهثًا:

ـــ "انتهى الأمر .. سأطلب أمي كي ترسل من يخرجنا من هنا .."

ومــددت يــدي فــي جيبــي لأخرج المدية التي سأنجز بها مهمتي...

فــي هذه اللحظة سمعنا حركة .. رفعت عيني فرأيت عشرة من هؤلاء الشباب يحيطون بنا .. وسمعت من يقول:

ــ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

[illegible]

[illegible]

بد أنه يرانا أصلاً"!!! [illegible] ...! لكنه لمحنا أخيراً"

سألتني الفتاة وهي تقف على أطرافها:

ـ هنا ؟

ـ أفضل الابتعاد قليلاً [illegible] ..

أطلقت ضحكة عالية رقيقة ومضت معي ..

فقط بطرف عيني [illegible] فأرى جرمتال تحاول اللحاق بنا [illegible] وسط هذه الخرائب والأطلال لابد أنها تعيش أسوأ لحظات حياتها ..

وأخيراً أصبحنا وحدنا تقريباً .. فتحت الفتاة فمها لتتكلم:

ـ علم الله ألا ......

لكنني في اللحظة التالية [illegible] على [illegible] عنقها [illegible] سيف [illegible] (كمونيا) .. فسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ...

وفي اللحظة التالية سمعت جرمتال تناديني .. بمعجزة ما اخترقت الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها ..

قلت لها لاهثاً:

ـ انتهى الأمر .. سأطلب أمي كي ترسل من يخرجنا من هنا ..

وسمعت [illegible] في جوفي [illegible] التي [illegible] بها [illegible] ..

الجزء الثاني

الفريسة

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعـــرف أنني سأموت بعد يومين فلا تقل العكس .. لا تكرر هذا الهراء وإلا طعنتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة .. أنا لم أفعل هذا منذ زمن .. قرنيتي الحبيبة .. وما بعد الجنس ...

منذ متى ضاع كل شيء ؟

لا أعرف ..

يشـــبه الأمر مراقبتك للشمس ساعة الغروب .. لا تعرف أبدًا متى انتهى النهار وبدأ الليل .. متى بهت الضوء وبردت الأشياء، ومتـــى تسرب دم الشفق الأحمر يلوث الأفق، ولا متى ساد اللون الأرجواني كل شيء .. لا يمكنك أن تمسك لحظة بعينها .... ليس بوسعك أن تقول: هنا كان النهار وهنا جاء الليل ...

فقـــط أذكر أن الأمور كانت تسوء بلا انقطاع.. وفي كل مرة كان الفارق بين الوضع أمس واليوم طفيفًا، لذا يغمض المرء عينه كـــل لـــيلة وهو يغمغم: أهي عيشة ..ما زالت الحياة ممكنة .. ما زال بوسعك أن تجد الطعام والمأوى وبعض العلاج .. إذن فليكن غد ..

ثـــم تصحو ذات يوم لتدرك أن الحياة مستحيلة، وأنك عاجز عن الظفر بقوت غد أو مأواه ..

متى حدث هذا ؟.. تسأل نفسك فلا تظفر بإجابة ....

* * *

الموعد كان منتصف الليل ..

أشق طريقي بين العشش العتيقة التي كانت فيما مضى تشكل شـــارع (شبرا). نعم .. أذكر أنه كان هنا شارع واسع تمشي فيه السيارات على الجانبين .. تراهنت مع (زينهم) على أنه كانت هنا سينما يومًا ما. ابن الكلب لا يعرف معنى سينما أصلاً لكنه يجادل بالباطل.

بصـــراحة أنا أيضًا لا أذكر إن كانت هنا سينما أم لا .. لكني علـــى الأقل أذكر ما هي السينما .. كانت هناك صور عملاقة جدا تتحرك، وكان هناك ظلام يمكنك فيه أن تدخن الحشيش بسهولة .. يبدو أنه كانت لي تجربة أو اثنتان فيها لكني لا أذكر مع من ..

الموعد كان منتصف الليل ..

بـــاب المتـــرو المغلق .. أنا أعرف كيف أفتحه .. فقط أدس رأس المسمار في القفل الحكومي الصدئ وأدق بحجر فينفتح القفل فالجنزير . هذا المدخل يعرفه كل أولاد الليل مثلي. لكننا نحرص علـــى أن نغلقـــه عند الخروج. لا نريد أن يتمكن أحد من دخول عالمنا السري تحت الأرض..

أزيـــح الستار الحديد وأنسل إلى الداخل .. الممرات المظلمة الخالية عطنة الرائحة ..

أشعل مشعلاً وأرفع يدي لتتسع دائرة النور ..

هناك تقف عربات المترو الخربة كوحوش هامدة.. لقد انتهى أمـــرها منذ كف السادة عن استعمالها ورحلوا إلى مستعمراتهم .. يوتوبيا وسواها ... لم تعد هناك صيانة .. لم تعد هناك كهرباء .. في النهاية وقفت هذه الوحوش الصدئة النائمة للأبد، ومن الواضح أنهـــا لـــن تتحرك ثانية .. بعض الشباب لا يعرفون أنها موجودة أصلاً..

في زمن ما كانت هذه العربات فائقة الشهرة، وكان هذا أعظم إنجـــاز للحكـــومة منذ دهور. لا أعرف متى تداعى وانهار. لكنه تزامن مع ميلاد يوتوبيا على الأرجح. أعتقد أن الناس نعموا بهذا المشروع خمسين عامًا أو أقل .. بعده صار مأوى للكلاب الضالة ثم لم تعد هناك كلاب ضالة .

لم يعد سوانا ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ... أواه !!.....

هـــناك كانوا يقفون .. (عبد الظاهر) و(متولي) و(محروس) و(مينا) ...

عرفوني من مشيتي العرجاء ومن قامتي فهتف (مينا):

ـ"سلام يا (جابر).. والمسيح الحي انتظرناك كثيرًا "

لا يمكـــنك أن تعرف دين أي واحد هنا ما لم ينطق بقسم من نـــوع (المســـيح الحـــي) أو يصل على رسول الله، فحتى الأسماء صـــارت عادية محايدة لا تدل على شيء .. (فريد) .. (عوض).. (عمـــاد).. الخ. لو كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا فهي أنه

لا يعرف شيئًا اسمه التفرقة الدينية. لقد تحققت جنة المساواة الطائفية ولكن بشكل عجيب لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحًا .. منذ ساوى الفقر بين الجميع، لم يعد أحد يعرف إن كنت مسلمًا أو مسيحيًا إلا عندما تعلن أنك ذاهب لعمرة، أو ينكشف ساعدك ليظهر وشم الصليب .. لولا انتهاء عصر البترول لاشتعل الوضع الذي كان مرشحًا للانفجار في أوائل القرن الواحد والعشرين ...

هتف (عبد الظاهر) في وجهي:

ــ"هل معك (فلوك) ؟"

أطلقت صوتًا نابيًا من خياشيمي .. (فلوجستين) معي أنا ؟.. هؤلاء البلهاء لا يستطيعون نطق اللفظة كاملة لذا قرروا أنه (فلوك)...

ــ"من أين يا بن الـ ...؟"

ثم دسست يدي في جيبي وأخرجت سيجارة ملغومة وقذفتها له:

ــ"هذه معي .."

أطلق صوتًا نابيًا آخر وهتف:

ــ"جميل .. عدنا لأيام الروضة .. "

لكنه أشعلها برغم كل شيء وأطلق سحابة كثيفة من الدخان.. لم يعد شيء بقادر على التأثير في هذا الجهاز العصبي، فلا شك أنه بحاجة إلى طن من الحشيش كي يشعر بانبساط وقتي. الفلوجستين .. الفلوجستين هو سيد المخدرات لكن من أين لنا به؟.

هناك في يوتوبيا تسيل انهار الفلوجستين .. إنهم يأكلونه ويشربونه.. إنهم يعرقونه .. إنه طمث النساء وبول الرجال .. صنابير الماء لا ينزل منها ماء بل فلوجستين .. يغسلون أقدامهم في الفلوجستين .. يسقون كلابهم فلوجستين.. لو حدثت ثورة يومًا ما فلن تكون من أجل المساواة، بل من أجل مطالبة المحرومين بحقهم الطبيعي في الفلوجستين..

(عبد الظاهر) بلطجي لكنه جدع .. أعترف أنني أحبه وأثق فيه. خاصة عندما لا يساوره ذلك الهاجس المرضي ويروح يحكي لنا خطته بصدد البايرول ويوتوبيا .. أنا أعتبر هذه الخواطر نوعًا من الاستمناء الفكري. هو لم يفعل شيئًا .. لن يفعل شيئًا على الإطلاق.. لذا يقضي الوقت في وصف المتع الجهنمية التي تنتظره لو نفذ خطة البايرول تلك ..

قال (متولي) وهو يسلك أذنه بإصبعه:

ــ"سليمان ينتظرنا هناك .. عند فتحة (سانت تريز).."

كانت اللافتات الصدئة المتسخة لا تقول أي شيء على الإطلاق .. لكننا صرنا قادرين على تحديد اتجاهاتنا في ضوء اللهب المتراقص.

هكذا وثبنا إلى عربات المترو التي لم يعد فيها مقعد واحد ولا لوح زجاج واحد، ومنها وثبنا إلى القضيب ثم إلى الجهة الأخرى، ورحنا نركض في الظلام قاصدين تلك الفتحة ..

هنا رأيناهم ..

كانوا خمسة يقفون هناك وقد أدركنا على الفور أنهم (بيومي) وشلته.

وســطهم علــى ضــوء المشاعل رأينا واحدًا ممزق الثياب مذعورًا والدم يسيل من أنفه ..

لقد قبضوا على سليمان ..

* * *

يمكن أن يتحمل المرء الحياة بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب (ربما بضعة أيام)..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ..

بلا أقراص للصداع...

بلا مؤشر ليزر ..

لكنه لا يتحمل الحياة بلا أحلام ..

منذ طفولتي لم أجرب العيش بلا أحلام ..

أن تنتظــر شيئًا .. أن تحرم من شيء .. أن تغلق عينيك ليلاً وأنت تأمل في شيء .. أن تتلقى وعدًا بشيء ..

فقــط في سن العشرين أدركت الحقيقة القاسية، وهي أن علي أن أحيا بلا أحلام ..

لــن يكون هناك شيء يا صاحبي .. لا اليوم ولا غدًا ولا بعد يوم ..

حــياتك حاضــر طويييييييي ـــيــ (مــاذا تنتظــر ؟) ــيييي ـــ (لا شيء) ــــ ـييل قاس ..

فقــط فــي هــذه اللحظات أدركت أن علي أن أخوض حربًا مريرة مع ذلك الطفل المزعج في داخلي .. الطفل المزعج يصرخ ويركل الأرض بقدميه: "لا أحلام ؟.. كيف ؟؟"

ثم ينطلق في سباب بذيء ويضربني ويعضني، لكني في كل لــيلة أصفعه وآمره أن يخرس .. لا أحلام يا ابن الــ (...)... لن يكــون هناك غد .. الغد أخذوه منك وعليك أن تقبل كما قبلت ألا يكون عندك مأكل أو مشرب أو ثياب أو سقف أو حبيبة أو كرامة أو أسرة أو ثلاجة أو هاتف أو تلفزيون أو ربطة عنق أو أصدقاء

أو حـــذاء أو ســـراويل أو فلوجســـتين أو واق ذكري أو أقراص للصداع أو مؤشر ليزر ..

يطلق المزيد من السباب البذيء ثم ينام ...

حاضـــر طويييييييييي ـــــ (ماذا تنتظر ؟) ـــ بيييي ـــــ (لا شيء) ــــــ بيل قاس ..

* * * *

لـــم أكـــن الأشجع ولا الأقوى .. لذا تقدم (عبد الظاهر) منهم وهو يلوح بالسنجة التي يحملها ، وقال بصوت أراد أن يكون قويًا فخرج متوترًا متحشرجًا:

ــ"مــاذا تريد يا (بيومي) ؟.. منذ زمن نحن كقطارين على قضيبين .. يتحركان عكس بعضهما لكنهما لا يلتقيان .."

أطلق بيومي سبة، وانفجر ضاحكًا .. بصق وقال:

ــ"مــن لكــم بمعرفة القطارات يا أولاد العاهرات ؟.. أنا أذكرها جيدًا وركبتها أكثر من مرة .. كانت القطارات لا تلتقي إلا عـــندما تقـــع حادثـــة، عندها كانت الجثث الممزقة والدماء تغطي الحقول !"

كان كلامه واضحًا .. لقد تجاوز حد التلميح ..

مـــد يده في الجوال الذي يحمله (سليمان) وأخرج جثة الكلب العملاق .. رفعه من عنقه برغم وزنه الثقيل، ورأيت العضلة ذات الرأسين تتكور مبللة بالعرق لامعة في ضوء اللهب:

ــ"هذه المكالمة لنا .. هذا يلزمنا .."

لم نكن لنتحمل هذا أيضًا .. المعدة خاوية والجائع مجنون .. بعـــد كل هذا الجهد يضيع منا الكلب الذي ظللنا ننصب له الكمائن ثلاثة أيام ؟..

متـــى يمكـــن أن تجـــد كلبًا آخر ؟.. لم تعد هناك كلاب في الشوارع على الإطلاق .. لا قطط .. لا فئران .. نشوة الشواء في الخـــرائب والمـــزاح مع أنفاس الحشيش .. و(صفية) التي لم تذق أكلة محترمة منذ شهر ؟... كل هذا كان ينتظرنا لو لم نر ابن الـــ (.....) هذا ..

هـــنا فقـــد (عبد الظاهر) أعصابه وصرخ بصوت ارتجت له ممرات المترو:

ــــ"ســـترون يـــا أولاد الـــ (...) !! .. هذا الكلب لنا .. لنا وحدنا وسنموت على جثته !"

وعلى الفور وثبنا جميعًا لنلتحم بهؤلاء الأوغاد ...

-2-

سأموت خلال يومين أو ثلاثة ..

تسألني كيف عرفت هذا ؟.. أقول لك إنه لا فرصة للنجاة أمامي .. أنا ولدت خاسرًا ولسوف يظفر بي الفتى القادم من (يوتوبيا) لا محالة ..

لهذا أتذكر .. لهذا أمرر مذاق حياتي على لساني كما يمرر المرء مذاق النبيذ المر بعد ما فرغت الزجاجة ..

أتذكر أشياء وأماكن ووجوهًا وكلمات وأبيات شعر وكتبًا وروائح، لكني في أغلب الأحوال أتذكر نساء ...

اسمها كان (عزة)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

(عزة) كانت تبيع الخبز على ناصية حارتنا ..

(عزة) تضحك .. (عزة) تهتز .. (عزة) تقطب .. (عزة) تغمز .. (عزة) تنتشي .. (عزة) تتشاجر .. (عزة) تتلوى .. (عزة) تهمس ... (عزة) تبتسم .. (عزة) تفكر ..

(عزة) تبيع الخبز ..

قالت لي مرارًا:

ـ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."

قلت لها إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي. حكيت لها عن كثير عزة فقالت لي:

ـ"اتنيل "

فتنيلت ..

قالت لي إنه مفترس .. إنه يغار عليها .. إنه يحمل مطواة قرن غزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهيها .. يعتقد أنها له. بعد أن ينالها قد يضمها إلى سمية ..

وجاء اليوم المحتوم الذي انتظرناه في رعب .. أنا أردت أن أعرف .. هي أرادت أن تعرف .. السرجاني أراد أن يعرف ..

لا أذكر سوى أنه كان ينفخ من منخريه كالثور .. لا أذكر سوى أنه كان يمزق لحم ساعديه وصدره بنصل مطواته بلا سبب واضح، فقط ليريني أنه لا يخاف شيئًا ...

لا أذكر سوى الطعنة .. شق يبدأ من الجفن العلوي ويمر بالقرنية وينتقل إلى الجفن السفلي ..

لقــد فقــدت قرنيتي .. البلهاء يقولون (عينه باظت) لأنهم لا يعرفون ما هي القرنية .. أنا أعرف أشياء كثيرة .. حتى والنصل يمزق عيني كنت أدرك الفارق التشريحي بين القرنية والعين كلها.

بــرغم هذا أعترف أنني جرحته كثيراً .. لو حسبت المهزوم بكمية الدم التي سالت منه فهو قد هزم. صحيح أنه من جرح نفسه بنفســه .. لكن العبرة بمن ينزف أكثر .. حمله رفاقه ليبعدوه وهو يخور كالثيران متوعدًا إياي بالمزيد .. لابد أن الخمر لعبت برأسه جدًا ..

قلت لها وهي تضمد عيني النازفة إنني أشتهي قبلة ..

قالت لي:

ـ"أتتيل .. عينك باظت"

ضــحكت بــرغم الألم .. برغم الدم الذي سال ليملأ فمي في وضعي الراقد وقلت:

ـ"ليست عيني .. قرنيتي فقط"

* * * *

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

كانت بلا عمل سوى أن تسرق أشياء من الباعة .

زوجهــا تركها لأنه حاول مرارًا أن يقنعها بأن (تفتح مخها) لكــنها رفضــت في إباء .. هناك كنز في الدار يمكن أن يكفل له حياة طيبة، لكن الكنز يرفض أن يباع ..

جاءهــا ذات لــيلة ثملاً ومعه ثلاثة من رفاقه، ثم تركهم في العشــة معهــا وخــرج بلا سبب واضح .. لكنها خرجت وراءه وأغلقت العشة عليهم من الخارج وملأت الحارة صراخا وعويلا، وســرعان مــا اكتشــف كــل واحد من الجيران في نفسه مدافعًا محمومًا عن الأخلاق.. هناك في العشة لحم بشري ثمل عاجز عن المقاومــة ينتظــر مــن يصــفعه ويركله ويبصق عليه. وقد فعل الجيران هذا في حماس ..

لــم يجرؤ زوجها على العودة لأنه ضعيف الجسد والشخصية أمامها ..

(نجــاة) تضــحك .. (نجاة) تهتز .. (نجاة) تقطب .. (نجاة) تغمــز .. (نجــاة) تنتشــي .. (نجاة) تتشاجر .. (نجاة) تتلوى .. (نجاة) تهمس ... (نجاة) تبتسم .. (نجاة) تفكر ..

(نجاة) تسرق الأسماك من الباعة وتكون تجارتها الخاصة .. كان هذا قبل أن يسرق سمكها وغد من (البدرشين)..

(نجاة) تقول لي:

ـ"تزوجني يا جابر .. سأكون خادمة تحت قدميك"

قلــت لها إن الناس يجب ألا تتزوج إلا لكي تأتي للعالم بمن هو أفضل .. طفل أجمل منك .. أغنى منك .. أقوى منك ..

مــا جــدوى أن يتــزوج الشقاء من التعاسة ؟.. الهباب من الطين؟..

ما الجديد الذي سنقدمه للعالم سوى المزيد من البؤس ؟

قلت لها إنهم في يوتوبيا يستحقون الزواج والإنجاب .. قالت إنهم فاسدون وأولاد كلب .. قلت لها إنهم هم من يحدد معنى الفاسدين ومن هم أولاد الكلب حقًا، لهذا من حقهم أن يتزوجوا وينجبوا ..

—"كل من يملك عشاء ما بعد عامين من الآن يستحق أن يتزوج وينجب"

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

هل وجدت معها متعة ما ؟.. لا أذكر .. فقط أعرف أنني أحتاج لها الآن ..

* * *

اسمها كان (عواطف)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

عواطف كانت ممرضة قبل أن تتوقف رواتبهن وقبل أن يجدن أنه لا جدوى من العمل .. أكثرهن عملن كطبيبات يعالجن مقابل مال زهيد. ما كن يعالجن به هو خليط من الأعشاب والعسل والوصفات البلدية، وأحيانًا بعض الأدوية التي يروجها سكان يوتوبيا ولا يستعملونها أبدًا.. أحيانًا بعض الأدوية المهمة فعلاً ، تلك التي كان العاملون هناك يسرقونها لنا وتباع بثمن باهظ ، ومنها المضادات الحيوية والمسكنات.

(عواطف) تضحك .. (عواطف) تهتز .. (عواطف) تقطب.. (عواطف) تغمز .. (عواطف) تنتشي .. (عواطف) تتشاجر ..

(عواطف) تتلوى .. (عواطف) تهمس ... (عواطف) تبتسم .. (عواطف) تفكر ..

(عواطف) تعالج عيني ..

(عواطف) تقول إنها تحب الرجل الذي يتشاجر ويفقد عينه من أجل امرأة ..

(عواطف) تقول إن من قابلتهم من رجال كانوا على استعداد للتضحية بها مقابل عقب سيجارة ..

(عواطف) تقول إنني رجلها ..

(عواطف) تقول إنني أذكرها بطبيب أحبته يومًا، ثم أدمن المورفين ومات بجرعة زائدة ..

(عواطف) سمراء جميلة .. كانت جميلة .. الجوهرة التي اعتنت الطبيعة بصقلها وتجميلها لتلبسها الأميرات، فسقطت في الوحل .. التقطها كلب أجرب بين أنيابه وراح يجري .. ويجري..

وأنا أطارد الكلب ليس من أجل الجوهرة ..

بل لأنني جائع .. والله العظيم جائع ..

-3-

الضربات تتطاير في كل صوب ..

ضـربات .. طعـنات .. ركـلات .. بصـقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

أنـا ضعيف جدًا .. أنا لا أملك ما يمكنني من مواجهة موقف كهذا .. فقط أتظاهر بأنني أقاتل على طريقة (كداب الزفة)، لكني أعـرف حـدودي وأعرف أنني لهذا السبب بقيت حيًا .. يجب أن تلتصق بالعصابات .. تلتصق بالأقوياء الذين يأخذون ما يريدون.. يجب أن تكسب مودتهم وتقنعهم أنك ضروري لهم، لكن لا تلتصق بهم أكثر من اللازم فتفقد حياتك عندما يفقدونها ..

أنـا جربت حظي مع البطش وفقدت قرنيتي. هذا يكفي المرء في حياة واحدة. لن تكون خسارتي قرنية وأنفًا أو قرنية وذراعًا .

ضـربات .. طعـنات .. ركـلات .. بصـقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

عندما أدرك أن كفتنا هي السفلى أقرر الفرار ..

أسـتدير وأنسى كل شيء عن لحم الكلب المشوي .. أثب إلى قضيب المترو وأركض في الظلام.

لو حالفني الحظ لوجدت الممر الذي يقودني إلى الخارج.

هناك من يصرخ من خلفي:

ـ"انتظر !"

لا أعـرف هل هو من رفاقي يلومني على نذالتي، أم هو من أعدائـي يريد أن يلحق بي لينتزع عنقي. سيان .. فقط أنا أركض ولا أنظر إلى الخلف ..

في يوتوبيا لا يأكلون الكلاب .. يربونها للتدليل وللحراسة ..

كنا مثلهم يومًا ما، ثم تعلمنا انها مصدر رخيص للبروتين. لو حـدثت الثورة يومًا ما فلسوف نبدأ بالتهام كلابهم المدللة السمينة كلها.

هذا هو الممر .. أركض فيه وأتعثر. لقد فقدت المشعل لكني احفظ طريقي على كل حال.

هناك ملصق قديم لأحد أجهزة المحمول .. عرض خاص من شـركة ما .. كان هذا عندما كانت هناك شركات محمول قبل أن يسـتولي عليها جميعًا (منصور بيه) ملك الاتصالات، وبالطبع لم يعد أحد يهتم بأن نستعمل هذه الأجهزة على الإطلاق، لكن الشبكة تغطي هذا الجزء من مصر على كل حال..

هناك ملصق آخر عن السمن ..

هـناك ملصق عليه فتاة حسناء شبه عارية قام احدهم بتشويه ملامحها وتسويدها .. يومًا ما فعل أحدهم هذا وزعم أنه فعله من أجـل الحفـاظ علـى الأخلاق. الحقيقة أنه اغتصاب رمزي لتلك الحسـناء، لكـن الحرمان الجنسي لم يعد من مشاكلنا اليوم (وهذا غـريب) .. مع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس

أسهل شيء يمكنك الحصول عليه.. الجنس مقابل أجر تافه فإن لم يكن فهو الاغتصاب ..

لكنني برغم هذا ظللت أصبو لشيء آخر .. أصبو لما بعد الجنس .. الشيء الذي يجعلك بعد إفراغ شهوتك تظل جالسًا جوارها تصغي وربما تربت على خدها الأسيل بأناملك .

عاطفة غامضة لن أطلق عليها اسم الحب . لست بهذه السذاجة والغنائية .. سوف أطلق عليها اسم (ما بعد الجنس)...

(عزة) .. (عواطف) .. (نجاة)..

أفتح الباب الحديدي . أخرج إلى الهواء الطلق والظلام ..

أغلق القفل بعناية كي لا يتسلل واحد آخر. هؤلاء في أنفاق المترو يمكنهم العناية بأنفسهم ويعرفون كيف يخرجون ..

لقد نجوت بأعجوبة ..

لكني جائع ..

فيما بعد عندما التقط أنفاسي سوف أعرف إن كان من حسن حظي أن بقيت حيًا جائعًا، أم كان من الأفضل لي أن أموت في نفق المترو المظلم.

لا اعرف .. لا أقدر على الموت .. انا بكتريا مرغمة على الحياة مهما حدث لها ..

على الأقل هناك (صفية). أختي ...

ثمة شيء واحد في حياتي ظل نظيفًا أو نجحت في أن أجعله كذلك.. رأيت ذات مرة في فيلم غربي في تلفزيون القهوة فارسًا

نبيلاً يمشي مع امرأة فيرى بركة وحل .. عندها نزع معطفه وألقاه على الأرض لتمشي عليه فلا يتسخ حذاؤها ..

مع (صفية) لم ألعب دور الفارس .. لعبت دور المعطف ذاته..

لهذا أنا حي .. لن أموت وأترك (صفية) تسرق أو تهز ردفيها بائعة السلعة الوحيدة التي تملكها .. لن أموت وأتركها للنساء يخمشن وجهها ويطلقن عليها نعوتًا قذرة .. لن أموت وأتركها تجوع ..

لن أموت وأتركها تحيا بلا حياة ..

* * *

كشف المرصد الصحفي بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان عن ارتكاب (172) جريمة عنف ضد النساء وذلك خلال الفترة من 30 يونيو حتى 25 ديسمبر 2005 ، وقد كشفت الدراسة من واقع ما تم رصده الآتي :-

- 150 جريمة قتل بينهم 6 جرائم اقترنت بالذبح، 3 جرائم اقترنت بحرق الجثث، 3 جرائم اقترنت بتمزيق الجثث وعدد 2 جريمة أجبرت الضحايا على شرب السم، وجريمة واحدة تم قتلها بإغراقها في مياه الترعة. وأخيرا عدد 4 جرائم قتل غير متعمد لقيام الزوج بالعبث في سلاحه الناري . - 13 جريمة شروع في قتل و9 جرائم اعتداءات بالضرب.

جاء الدافع لارتكاب تلك الجرائم : بسبب الشرف: هروب الزوجة - خيانة الزوجة - الشك في سلوكها - الغيرة (70)

جـريمة، تردى الأوضاع الاقتصادية: مصروف المنزل - ياميش رمضان - نقل ملكية سيارة - النزاع على ميراث (39) جريمة ، خلافـات أسـرية : رفض خطبة أو زواج - التأخر في إعداد الطعـام - خلافات بين الزوجة وأسرة الزوج - إهانة الزوج او صـفعه - إنجاب إناث - مطالبة الزوج بالطلاق(44) جريمة ، وكـان العنف بسبب الدجل والشعوذة: إخراج جان وعفاريت من جسـد الـزوجة (3)جرائم ،وجاء عدد الجرائم بسبب الفشل في محاولـة اغتصـاب الضحية (6) جرائم ، فيما كان القتل بسبب الاسـتيلاء علـى أموال الضحية (7) جرائم ، وأخيرا قتل غير مـتعمد: عـبث بسلاح ناري، دفع الضحية أثناء المشاجرة (9) جرائم .

مـن حيث القائم بالجريمة: ارتكب الأزواج عدد (146) والأشقاء والأقارب (17) وعدد (9) جرائم لم يكن هناك صلة بين الضحية والجاني .

تـوزع الـنطاق الجغرافـي لمكان وقوع الجرائم كالآتى :- محافظة القاهرة شهدت عدد (48) جريمة ، الجيزة (23) ، قنا (11) ، سوهاج (16) ،المنيا (5) ، بور سعيد (4) ،السويس (5) ،كفر الشيخ (3) ،الغربية (6) ،البحيرة (3) ، دمياط (3) المنوفية (9) ،القليوبية (8) ،الإسكندرية (13)، الإسماعيلية (5)، المنـيا (4) جـرائم ، فـيما لم يذكر محررو الخبر مكان وقوع (6) جرائم .

تمـثلت الأداة المسـتخدمة فـي ارتكاب تلك الجرائم في :- أسـلحة بيضاء (سكين - ساطور- مطواة)أسلحة نارية (مسدس - بندقـية) ماء نار ،فئوس - شاكوش - شوم - عصـى- حبال - قطـع خشب ،شريط لاصق - كي بالنار- مفتاح إنجليزى - ماسورة حديدية ، القتل بالخنق .

علـى أسـاس المستوى التعليمي: كان هناك 11 من حملة المـؤهلات العليا، (3 1) طالبًا بالثانوى والجامعة ،غير متعلمين 32 فيما كان هناك (116) جريمة لم تتوصل الدراسة للمستوى التعليمي لمرتكبيها لإغفال محرر الخبر ذكره .

* * *

الأرقام لا تكذب ....

من بين كل مائة جريمة عنف ضد النساء تقتل 85 امرأة..

من بين كل مائة امرأة قتيلة هناك أربع يذبحن كالشياه واثنتان تحرقان ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أنا رأيت كل شيء يتهدم ..

أنذرتهم ألف مرة، لكنهم لم يصدقوا أو صدقوا ولم يبالوا ..

أحيانا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له. شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء.

في الماضي عندما كنت أتفلسف قلت لأحد أصدقائي:

ـــ"لقد جمع (بلفور) اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

سألني في غباء عمن هو (بلفور) فقلت:

ـــ"هو رجل جمع اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

بدت عليه الدهشة وهتف:

ـ"يا سلام .. !... رجل جمع اليهود في وطن واحد ؟"

واصلت كلامي:

ـــ"اعتقادي أن هناك وعدًا آخر .. ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملين والأفاقين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض في وطن قومي واحد هو مصر .. لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة .. لهذا لا تجد في ألمانيا وغدًا .. لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقًا .. كلهم هنا يا صاحبي !"

هتف في دهشة وهو يطلق أبخرة الحشيش:

ـ"يا سلام .. هناك من وعد الـ ...."

ثم لم يستكمل العبارة لأن رأسه مال على صدره ونام .. خيط لعاب يسيل على ذقنه ..

كنت أقول لهم:

ـــ"هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب !.. لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات (مالتوس) و(جمال حمدان) ونبوءات (أورويل) و(هـ. ج. ويلز).. لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون ... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي

عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيرًا حتى لو كانت هذه آخر نشوة له .. إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !"

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق ..

لا يهتمون البتة ..

إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه ..

إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !

-4-

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

إنه يغطس في المجاري ليقوم بتسليكها، برغم أن شبكة المجاري هناك جيدة ويقومون بصيانتها بعناية. يجب أن أقول إن تلك المجتمعات المغلقة لها خدماتها الخاصة المستقلة. بالنسبة لنا لم يعد هناك ما يدعى مجار .. نحن نتصرف .. تعتمد معظم البيوت على (الترنشات) وهناك عربة تكسح هذه ثم تتخلص منها في موضع غير بعيد. بعض الناس بلا بيت أصلاً لذا لا تشكل له المجاري مشكلة .

من المسلي أن تلاحظ إلى أي حد انكمشت احتياجات المرء.. في البدء كانت هناك شقق بها أجهزة هاتف وثلاجات وتلفزيون وحمامات .. لهذا كان الناس دائمي الشكوى من حياة الكلاب التي يرغمون فيها على مشاهدة برامج تلفزيونية سخيفة، مع انقطاع الكهرباء، وانقطاع اتصال الهاتف ، وانقطاع المياه .. عندما تفقد هذا كله لا يعود هناك مصدر للشكوى .. هذا نوع خاص من الكارما كما ترى . عندما لا تكون هناك كهرباء فهي لا تنقطع أبدًا.

فلتزأر العاصفة .. فلتزأر العاصفة ...

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

(صفوت) غواص مجار في يوتوبيا ..

(صفوت) يقرأ الجريدة ويقول لي:

ـــ"سوف يلغون الجمارك على الأخشاب المستوردة من الاتحاد الأوروبي.."

ثم ينظر لي في حيرة ويسألني:

ـ"هل هذا مفيد ؟.. ولمن ؟"

أقول له خلاصة فلسفتي التي كونتها طيلة هذه السنين:

ـــ"لا أفهم معنى هذا لكنه مؤذ لنا وخلاص .. أي قرار يتخذ في أي وقت هو ضدنا .."

(صفوت) يبدي علامات الفهم ..

(صفوت) على علاقة بخادمة. يبدو أنها مصابة بفقدان الشم أو زكام. وهذه الخادمة كانت تجلب له الفلوجستين. مخدومها لا يبالي بهذا السائل الثمين ويضعه في أي مكان .. وكانت هي تسرق قطرات من الزجاجة تجلبها لـ (صفوت)، و(صفوت) كان يأتيني بها ..

فيما بعد أضيف بعض قطرات الليمون على السائل لتعطيه تلك الرائحة وتلك الوخزة الباردة عندما تضعه على جلدك .. يتحول السنتيمتر إلى خمسة سنتيمترات، وهذه أبيعها بسعر باهظ لشبابنا . وعندما يشكون من أنهم لا يرون النيران الخضر أقول لهم في غضب:

ـ" لقد فتك الإدمان بأعصابكم يا أولاد الـ (...).. لم يعد من شيء قادرًا على أن يسطلكم سوى سكرات الموت ذاتها .. "

هكذا يخرسون .. فكلامي لا يخلو من صحة ..

غش ؟.. وما في ذلك ؟.. أفضل الغشاشين طرًا هو من يغش المخدرات .. هذا رجل قديس يعمل لمصلحة الناس في رأيي.. إنه مصلح اجتماعي ينعم بالمال !.

* * *

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

وقد كنت في انتظاره لدى العودة من هناك ..

منذ اللحظة الأولى ترجل هذان فشعرت بأنهما غريبان ..

لا أعرف كل واحد في المنطقة، لكني بالتأكيد أعرف البؤس والشقاء عندما أراهما .. أعرف الجوع .. أعرف الوهن .. قابلتهم كثيرًا جدًا حتى صرت أعرفهم من بعيد بسهولة تامة ومهما تنكروا ..

هنا رأيت بؤسًا وشقاء وجوعًا غير أصيلين ..

رأيت خوفًا وهذا غير معتاد .. في عالمنا لا ترى الخوف كثيرًا إنما هو نوع من استسلام للمصير وقنوط ..

وقفت من بعيد أراقبهما ..

رأيت الدهشة .. رأيت الاشمئزاز .. رأيت التقزز .. رأيت التوجس ..

هذه جميعًا عواطف دخيلة على عالمي .. لا احد يشمئز عندنا.. لا أحد يندهش .. أي طفل في التاسعة رأى كل شيء

وجاع كثيرًا جدًا، وغالبًا قد اغتصب ثلاث أو أربع مرات، لهذا ترى على وجهه علامات من رأى كل شيء كأنه عاهرة عجوز مجربة

قلت لنفسي إن هذين ليسا من هنا .. ليسا من الأغيار ..

فلتقطع ذراعي إن لم يكونا من يوتوبيا ..

رأيت الفتى يمشي مع الفتاة وسط الزحام وأبخرة العرق ..

توقف عند .. عند (سمية)..

إنه يتفاوض معها ..

ذوقه رديء جدًا .. (سمية) أقبح الفتيات هنا وهي أقرب إلى ذكر مكتمل الرجولة، دعك من أن عمها هو (السرجاني) ذاته !.. السرجاني الذي أطار قرنيتي ..

ومن عجائب المصادفات أن السرجاني فقد عينًا – أو قرنية – في مشاجرة ليست بالبعيدة جدًا. لم تعد علاقتنا سيئة جدًا كما كانت لكننا نتحاشى المواجهة .. فقط نتبادل النباح من جديد عندما نرى بعضنا ..

لم يكن بلطجيًا .. إنه قواد .. صحيح أن جسده يوحي بالمهنة الأولى لكن دعني أؤكد لك إنه قواد .. لا يبيع قوة جسده وبطشه ولكن يبيع نساءه. بضاعته الوحيدة هي (سمية) وبالطبع لم تكن رائجة جدًا ..

هذا الفتى الأحمق اختار (سمية) وبهذا صار تحت رحمة السرجاني .. يمكنه أن يعمل أي شيء .. يهدده بالسنجة ويأخذ كل شيء معه، أو يتهمه بالاعتداء على شرف الأسرة – على طريقة

(ستيفان روستي) في الأفلام القديمة – ويرغمه على قبول أي شرط مجحف ..

السؤال الأهم هنا: ما دور الفتاة التي معه ولماذا لا يكتفي بها ؟.. هل هي أخته ؟.. من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أخته ؟.. بل من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أية أنثى أخرى ؟

على كل حال قد أخذ الفتى (سمية) ودخل بها إلى الخرائب ..

لن يتحرش به أحد . هي تحميه .. فقط لو صرخت أو استغاثت أو أصابها مكروه فلسوف يتحول إلى شرائط ... سوف يمزقه الفتية الموجودون في الخرائب يتعاطون الكلة، إلى أن يصل عمها لينهي عملية السلخ ..

كان الفضول يستبد بي كي أعرف أكثر، لذا نسيت كل شيء عن (صفوت) وما يحمله، ورحت أشق طريقي وسط الخرائب بحثًا عن (سمية) وزبونها ..

على الأرجح سوف تواجه الفتاة التي معه المشاكل.. أنا لا أطيق أن أرى فتاة في مأزق، لأن هذا يذكرني بـ (صفية)...

أعتقد أن بوسعي أن أنقذها لو حدث شيء ..

لست قويًا لكنني ذو شعبية، كما إنني من شلة (عبد الظاهر) وهو يفرض علي حمايته . أي اعتداء علي هو اعتداء على الأخير، وهذا ليس أمرًا هينًا ..

كنت أقف هناك في الظلام، عندما فوجئت بمنظر غريب .. الفتى يهوي على عنق (سمية) بسيف يد فتهوي كجوال ثقيل على

الأرض. لم يكن يريدها كامرأة .. كان يريد إيذاءها لسبب لا أعرفه ..

أو ربما أعرفه !

لكنه غبي فعلاً... السرجاني لا يترك سمية تغيب عن عينيه، وبالتالي لابد من واحد يراقبها من بعيد ليضمن أنها لن تهرب أو تأخذ المزيد من المال من الزبون .. هكذا عرفت أن النبأ وصل إلى السرجاني بسرعة البرق ..

عشرة من شبابنا يركضون في الظلام .. يثبون فوق بقايا الجدران المتهدمة والقرميد وأكوام القمامة .. يثبون فوق الصخور .. يثبون فوق اللحظة ...

إنهم يحيطون بالفتى وفتاته بينما تكومت (سمية) على الأرض لا تعرف ما يدور هناك ..

وصاح (سوكة) بصوته الحلقي الغليظ:

ـ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

الجزء الثالث

الصياد

-1-

الحقد في العيون كان واضحًا جليًا .. ذات النظرة التي ظهرت في عيونهم وهم يهدمون (الباستيل).. هم ذاتهم .. إن للرعاع جنسًا وشكلاً موحدين مهما تباينت بلدانهم ولغاتهم .. وفي الأيدي التمعت نصال لا تنتمي للمدي إنما هي أجزاء من هياكل سيارات تم تحويلها لأدوات قتل ..هناك ماسورة مياه أو اثنتان على طريقة عصابات (نيويورك)..

ارتجفت جرمينال والتصقت بي .. لن نفلت من هذا ..

وشعرت بيد تفتش جيبي في غلظة، ثم خرجت حاملة الموبايل ..

عيونهم تحتشد على الجسد الراقد على الأرض .. الرسالة واضحة تمامًا وقد فهموها:

ـــ"إنهم يخطفون أي واحد منا يجدونه ليتسلوا به عندهم، ثم إنهم يقتلونه !"

أدركت أن الضربة الأولى هي التي ستفجر السد بعدها تنهال الضربات .. فقط من يبدأ بها ؟.. وداعًا جرمينال.. كانت حياة مملة برغم كل شيء .. ربما كان الخلاص منها نوعا من التغيير..

ـ"لا تؤذوهم يا شباب .. إنهم أبرياء .. أنا رأيت الفتاة تسقط ولم يلمسها أحد.."

كـان هذا أحدهم يتكلم في حزم.. لم أتبين ملامحه لأن عيني كانت تنظر إلى الموقف لا الأشخاص ..

قال أحدهم:

ـ"أنا رأيته يضربها يا جابر"

قال منقذي الغامض:الذى صار(جابر)

ـ"أنت لا ترى شيئًا يا بن الـ (...).. لقد أطارت الكلة عقلك وأعمتك"

ثم همس في أذني:

ـ"هل معك فلوجستين ؟"

ترددت فهمس:

ـ"إما هذا وإما أن ترى أذنيك على الأرض بعد لحظة !"

مـددت يـدي إلى جوربي وأخرجت الزجاجة الصغيرة التي تشـبه أمبولاً يتم لصقه إلى الكاحل بشريط، فاختطفها مني ولوح بها أمام العيون:

ـــ"هـل تعرفون هذا ؟.. (فلوجستين) !.. من لم يجربه بعد فليعـرف أنه شيء يختلف كلية عن (الكلة) والبانجو والصراصير .. خـذوه وجربوا .. نقطة واحدة على الساعد ..لا تكثروا منه يا أولاد البلهاء فقد رأيت من يموت في ثوان لأنه وضع نقطتين"

يبدو أنهم كانوا جميعًا يعرفون ما يتكلم عنه ..

علـى الفـور نسَـوا كـل شيء عن الانتقام، وانقضوا على الأمبول وراحوا يتبادلون الشتائم البذيئة .. فجأة لم يعد لنا وجود..

أحـدهم حـاول أن يـركض بالأمبول فوضع آخر ساقه في طـريقه فسقط .. انقض على الأمبول ونزعه فقط ليغرس أحدهم إصـبعيه فـي عينيه .. هنا انقض أحدهم يعض مؤخرة هذا الذي غـرس إصـبعيه .. فـي هذا الوقت كان الذي سقط قد هب على قدميه وركل من يعض المؤخرة في وجهه .. كتلة أجساد تتصارع فـلا تعرف أبدًا من أين يبدأ هذا وينتهي ذاك .. من المغلوب ومن الغالب ؟

لـم يسأل أحدهم عن كيفية حصولي على هذه الكمية .. لابد مـن التعاطي أولاً ثم الفهم بعدها .. فقط الحمقى هم من يتوقفون أمام الفلوجستين ليتساءلوا عن مصدره ..

لـو توقفـوا لحظة لأدركوا أن وجود الفلوجستين معي يؤكد التهمة ..

صاح جابر في الجمع الذي لم يعد يسمع ولا يرى:

ـــ"إنهمـا لصـان !... لقد سرقا هذا الفلوجستين من كلاب يوتوبيا !"

كأنه يمنحنا بهذا صك غفران !

هنا رأيت ذلك العملاق القواد قادمًا من بعيد وهو يلوح بسيفه مطيـرًا رقابًا وهمية، بينما تنطلق منه قذائف من الشتائم .. شتائم لا يمكن التلميح لها هنا ..

كان قادمًا نحونا وهو يرغي ويزبد، هنا ابتدره الفتى صائحًا:

ـ"فلوجستين يا سرجاني !... فلوك !... فلوك !"

لم يخفف الرجل من سرعته إنما غير مساره بعد ما كان متجهًا مباشرة نحوي، ليندفع نحو المتقاتلين .. لم أفهم ما حدث لكني متأكد من أنه هوى بسيفه عليهم .. يبدو أن استيعاب هؤلاء القوم سريع جدًا، وترددهم معدوم . الصقر الذي لا يجد وقتًا ليفهم ما يدور هنا، ولكنه ينقض ثم يفهم ..

أشار لنا الفتى منقذنا من طرف خفي لنبتعد فجرينا وراءه ..

لو لم نثق فيه فبمن نثق ؟

* * *

كشف الدكتور أحمد عكاشة في أحد المؤتمرات عن أن هناك في مصر أكثر من مليوني مدمن, و12 ألفاً يتعاطون الهيروين, ومليون يتعاطون مخدرات أخرى كالبانجو وأبي صليبة في المرحلة العمرية من 12 إلى 19 عاما.. يتصدر البانجو القائمة ويليه الحشيش .. يعرف الباحثون جيدًا أن المخدرات وراء تزايد معدلات الجريمة في مصر من خطف واغتصاب السيدات وقتل الآباء, وأنها تستنزف سنويا ما لا يقل عن مليار جنيه من تكلفة المكافحة والتهريب.

* * *

وسرعان ما كنا في مكان ما من هذه الخرائب .. ثمة كوخ صغير مكون من قطع خشب وأجزاء مفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدًا.. أزاح قطعة من المشمع لندخل ففعلنا هذا مجبرين ..

كانت حالة الكوخ من الداخل أسوأ .. هناك إطارا سيارة يستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي ..

الدليل الوحيد على وجود كهرباء يأتي من مصباح واهن يتصل ببطارية سيارة عتيقة . وقد تم تعليق سلك المصباح على عصا تبرز من الخشب .. إضاءة لعل الظلام منها افضل منها وأكثر بهجة .. إضاءة سقيمة .. إضاءة خلقت كي تنطق كلماتك الأخيرة فيها قبل أن تخرج الرغوة البيضاء من فمك وتموت ..

للمرة الأولى أتمكن من تفحص ملامح هذا المنقذ .. كان في الثلاثين من عمره نحيلاً منكوش الشعر تبدو عليه بوضوح سمات سوء التغذية، لكنه قوي البنيان كالذئاب. وعلى أنفه نظارة تم لحامها بالنار ألف مرة، ومن تحتها وجه امتلأ بالخياطة كأنه وجه المسخ في أفلام (فرانكنشتاين) .. لاحظت كذلك أن له قرنية ذابت وتحولت إلى عجينة بيضاء .. قلت له:

ـ"شكرًا على إنقاذنا .."

قال وهو يزيح بعض المهملات ليسمح لنا بالجلوس:

ـ"اسمي (جابر).. لا شكر على واجب ..أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعًا للفوز بتذكار فريد ! .. أنتما من يوتوبيا طبعًا !"

ـ"لا .. لسنا من .."

نظر لي في حدة بعينه التي تحولت إلى عجين وقال:

ـ" لا تحاول خداعي .. كلنا يعرف ما يفعله اللصوص عندما يتسللون لنا .. ومتى فرغوا من مهمتهم جاءت طائرات المارينز لتنقذهم مع صيدهم .. ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟.. (كخ) ؟.. عيب ؟ .. يا للقسوة !"

نظرت إلى جرمينال فنظرتْ لي ..

شعور بعدم الراحة يغمرنا .. نحن لم نخدع أحدًا. الآخرون كانوا سيمزقوننا في الحال، أما هذا فيدخر لنا مصيرًا لا أعرف ما هو لكنه بطيء .. بطيء وكل ما هو بطيء قاس ...

ـ"ما اسمك ؟"

قلت بلا اكتراث:

ـ"علاء"

ابتسم في خبث وقال:

ـ"طبعًا لو حسبت أنني سأصدق لحظة واحدة أنك علاء فأنت ترى في وجهي غباء، لكن لا يهم .. لا قيمة للأسماء إلا في جعلك تعرف أنني أوجه لك الكلام .. سنفترض أنك علاء ولتكن هي مها .. علاء ومها .. جميل .. هل أنتما أخوان ؟.. سأفترض هذا كذلك .. لكن لو لم تكونا أخوين فلتعلما إنني لن اسمح بأي شيء تحت سقف بيتي أو تحت قماش عشتي، لأنني لم آت بكما لهذا الغرض، ولا أعيش وحدي"

سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة في العقد الثاني من العمر .. يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفي أي حسن .. القذارة جعلت ثوبها صلبًا لا يرف ولا يهتز كأنه من جلد مدبوغ.. نظرة

الحيوان الخجول الوجِل المتواري في الدغل تبدت في عينها عندما رأتنا .. فيما بعد عرفت أن هاتين العينين تنطقان بكل شيء كأنهما متصلتان بالروح مباشرة ...

قال لها باسمًا:

ـ"هذه أختي .. تعالي يا (صفية).. كنت تسألين عن منظر هؤلاء الأثرياء الذين يقيمون في مستعمراتهم الخاصة .. هذان منهما !..."

نظرت لنا في عدم فهم .. نحن نبدو في حالة أسوأ منها ..

قال الفتى:

ـ"هذا لزوم التنكر .. نوع من الشحم الذي يضعه الممثلون على وجوههم.. لقد جاءوا ليظفروا بواحد منا يتسلون به .."

وبدأ انفعاله يتزايد رويدًا رويدًا كأنه يبصق الحقد الذي يتراكم فوق روحه:

ـ"لماذا لا تتركوننا وشأننا ؟.. سرقتم منا الماضي والحاضر والمستقبل .. لكنكم تكرهون أن تتركونا نعيش .."

وقبل أن أفهم من أين جاء ولا متى وجدت نصل سيف عملاق تحت ذقني .. ومن بين أسنانه الصفر قال:

ـ"هل ترى أن آخذ منك تذكارًا كما تفعلون معنا ؟... إن أذن فتاة ستكون تذكارًا ممتازًا .. أذن دقيقة حمراء نظيفة .. سوف يحسدني الجميع عليها وربما اقترضوها مني .."

ثم انفجر في ضحك وحشي .. ضحك وحشي .. وحشي ..

ظللنا صامتين.. كنت حائرًا بين إظهار الخوف فأشعل ساديته أكثر، أو إظهار اللامبالاة فأثير غيظه وجنونه .. النتيجة إنني ظللت أرقب وجهه بوجه كالصخر ليس عليه أي تعبير. ونظرت لجرمينال بطرف عيني فوجدت أنها على الأرجح قررت الشيء ذاته ..

في النهاية هدأ .. فقال للفتاة:

ـ"أعدي لنا شيئًا يؤكل .."

* *

كان اسم صاحبه (عزوز)..

ضخم الجثة له عين يسرى ترفّ طيلة الوقت . كأنه يتوقع الشؤم منذ ولد ..

عزوز دخل الخرائب ليقضي حاجته في تلك الليلة عندما ظفر به ثلاثة من يوتوبيا .. اضطروا لقتله عندما لم يتمكنوا من خطفه. ثلاثة فتية أقوياء البنية في عيونهم قسوة وبرود وتعال..

لم يعرفوا هنا ما حل به إلا عندما رأوا طائرة المارينز تحلق فوق الخرائب، وكشافاتها الساطعة تمسح المكان. عندها عرفوا أن أحدهم سقط ..

راح الناس يقذفون الهليوكوبتر بالحجارة، وأخرج (مرسي) المسدس الذي قام بصنعه بنفسه في ورشة خراطة، وأطلق طلقتين على الطائرة ..

ارتفع الوحش المزمجر وهو يصوب كشافاته في كل اتجاه، ثم هبط قليلاً، وأمكنهم أن يروا جندي المارينز الجالس على باب

الطائرة المفتوح وقد وضع البندقية الآلية بين فخذيه، وراح يطلق الرصاص بلا تمييز على جموع الغاضبين ..

سقط كثيرون .. سقط (مرسي) ذاته ..

والطائرة تدخل إلى الخرائب، ثم يتدلى منها سلم من الحبال .. يتسلق الفتية الثلاثة السلم وهم يصرخون صرخات وحشية، ثم ترتفع الطائرة ..أولاد الكلب حسبوا أنهم يمثلون فيلمًا أمريكيًا عن حرب فيتنام .. الفتية صاروا داخل الطائرة وهم ينظرون من أعلى إلى الجموع الغاضبة .. أحدهم لوح بشيء دام في يده وأطلق سبة بذيئة ..

هرع (جابر) إلى حيث كانت جثة مرسي والتقط المسدس .. ثبت يده اليمنى باليسرى وأحكم التصويب، لكن الطلقة التي دوت لم تجرح أحدًا. فقط آلمت ذراعه بشدة ، وتردد صداها على مدى دهور..

وابتعدت الطائرة ..

هرع الجميع إلى الخرائب على ضوء المشاعل .. وهناك جوار جدار وجدوا جثة عزوز وقد مزقتها الطعنات. فقط لم يكن له ساعد .. لقد تعب فتية يوتوبيا كثيرًا حتى انتزعوه، ومن الواضح أنهم لا يملكون خبرة الجزار في التشريح . لكن لو لم يأخذوا تذكارًا لما صدقهم أحد في يوتوبيا عندما يعودون ..

ابتعدت الطائرة ...

لكنها تركت المزيد من الحقد الأعمى الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها ...

أقسم أخو (عزوز) الذي لم يكن يطيق أخاه وهو حي، ليقطعن ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو سقط في يده .. الجديد في الموضوع هو أنه سيفعل هذا بأسنانه وليس بالسكين ..

الفرصة لم تأت، وإن ظل الجميع ينتظر في شغف ليرى كيف يحدث هذا ...

يعرفون أنه سينفذ انتقامه حرفيًا، ولكن مع أي واحد تعس من الأغيار يقع تحت يده في المشاجرة القادمة. هناك من سيفقد ساعده لأنه نافس (عزوز) على بقايا رغيف.. هذا مؤكد ..

هذا ما حكاه لنا جابر وأنا قبل أي واحد آخر أعرف أنه صحيح ..

-2-

والآن يا صغيرتي انظري لي واتلي صلاتك الأخيرة ..
إن عناقي المشبوب سوف يهشم ضلوعك .. سوف أعتصر روحك ذاتها ..
عندما تصعد إلى السماء مهشمة تستند على عكازين ..
سوف تسألها الملائكة عما حل بها ..
ستقول: لقد نمت مع الشيطان ذاته ..
الشيطان الذي أثملته صرخات العذارى قبل الذبح ..

من أغاني الأورجازم

* * *

الطعام الذي أعدته لنا (صفية) هذه كان خليطًا من الفول والطعمية طعام الأغيار المقدس .. أحيانًا نأكل هذه الأشياء طبعًا على سبيل التغيير لكن ليس بهذه الطريقة !.. بقايا أوشكت على الفساد من عدة وجبات سابقة قامت بخلطها وتسخينها على الموقد، ثم صبت على الخليط زيتًا وملأت قبضتها بالتوابل ونثرتها على الطنجرة..

قال (جابر) مفسرًا:

—"نحن نكثر من التوابل لأنها تخفي طعم أي شيء .. تخفي طعم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض الممشش ...التوابل هي السلعة الوحيدة التي لم يزدد سعرها لأنها ضرورية كي نبقى أحياء .."

وناولني طبقًا وآخر لـ جرمينال.. ثم ناولته الفتاة قطعة من خبز مسود فاحتفظ بها لنفسه ..

كنت قد أكلت الفول من قبل كما قلت .. إنه يساعدك على التغيير عندما تمل إفطارك المعتاد، لكن جهازنا الهضمي لم يعد يتحمله .. لهذا أحجمت عن الأكل لأني لا أعرف كيف سيكون قضاء الحاجة عندهم . لا أعني أنني لا أعرف .. بل لا أريد ..

قال وهو يقلب الملعقة في طبقه:

—"بالطبع لا تفهمان شيئا عن الوضع الذي صرنا إليه .. لكني أكره ألا أخبركما بكل شيء .. الصورة التي تريانها كانت موجودة منذ البداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئًا فشيئًا ... يصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في العشر السنوات الأولى من هذا القرن .. فجأة انهار السد .. لم تعد السياحة قادرة على إطعام هذه الأفواه .. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بديلا جاهزًا لقناة السويس .. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاستغناء عنه بعد ظهر (البايرول)، وطردت العمالة الوافدة .. هكذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا، وانعدمت الخدمات للفقراء لأن الدولة أعفت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل

شيء .. لم تعد هناك حكومة أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا .. مع الوقت توقفت الرواتب وتوقفت الخدمات وذابت الشرطة وبالتالي لم تعد علينا ضرائب... كان آباؤكم من طبقة استطاعت أن تستخدم نفوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج .. قروض من المصارف .. احتكار .. كل شيء كان في مصلحة آبائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما هوينا نحن إلى الحضيض .. لكن الحياة معنا صارت أمرًا مستحيلاً... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعزل نفسها طلبًا للأمان في تلك المستعمرات على الساحل الشمالي، وقد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنون ولاءهم بينما لا يضمنون ولاء البودي جارد المطحون بدوره .. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كانت تؤرقهم .. كل الثورات الشعبية في التاريخ بدأت بذبح الأثرياء .. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كل شيء والآخر لا يملك شيئًا .. أهمية المجتمع الثاني لا تزيد على كونه سوقًا استهلاكيًا لا بأس به .. حتى لو كان يعاني الفقر فإن كثافته السكانية تسمح بكل شيء .. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرًا ..."

ثم توقف عن الأكل وسألني:

—"هل لديكم إسرائيليون في يوتوبيا ؟"

قلت في دهشة:

—"كثيرون .. أعز أصدقائي منهم .."

قال وهو يعاود المضغ:

ـ"هذه سمة مهمة لدى قومك .. لقد اتخذوا موضعهم في الشرق الأوسط الجديد الذي كانوا يتحدثون عنه .. المثلث الذي حلمت به إسرائيل كثيرًا .. مال خليجي (قبل أن ينضب) .. ذكاء إسرائيلي .. أيد عاملة مصرية رخيصة .. نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوًا"

قلت في غيظ من كل هذه المحاضرة:

ـ"ولماذا أعتبر إسرائيل عدوًا ؟.. هل لمجرد أن هذا يروق لك ؟"

نظر للفتاة وتبادل ابتسامة منهكة وقال:

ـ"نم الآن ..نم .. إن نصف ما أعرفه لا تعرفه .. والنصف الآخر لا يهمك أن تعرفه .. نم وفي الصباح نرى كيف تخرجان من هنا محتفظين بأذنيكما .."

ثم هز الملعقة في يدي وقال:

ـ"لا ألاعيب .. إنهم يعرفون مكاني وسوف يعودون هنا عندما يزول مفعول الفلوجستين .. عندها يجب أن أكون موجودًا لأحميكما وإلا ...."

وأشار لعنقه بحركة ذات معنى..

* * *

هكذا لم نستطع الفرار .. لم يكن هذا مطروحًا دعك من أننا كنا مرهقين فعلاً.. ألعن ليلة في حياتنا ونحن نجلس متلاصقين في هذا الكوخ كريه الرائحة لا نجرؤ على أن نتمدد أو نلمس أي جزء

من الجدار ... هكذا سوف نبقى حتى الصباح وبعدها ؟.. كل شيء يتوقف على خطة هذا الفتى ...

أنا لا افهمه .. أعتقد أنه من الطراز المثقف في وسط ليس وسطه .. الخروف الذي يفكر يصير خطرًا على نفسه والآخرين. أنا أعتبر مثقفًا في يوتوبيا .. أنا من القلائل الذين قرءوا كل شيء وقع تحت أيديهم، لكن هذا لا يجعلني أتعاطف معه ذرة .. ليست الثقافة دينًا يوحد بين القلوب ويؤلفها، بل هي على الأرجح تفرقها، لأنها تطلع المظلومين على هول الظلم الذين يعانونه، وتطلع المحظوظين على ما يمكن أن يفقدوه .. إنها تجعلك عصبيًا حذرًا.. دعك من تحول قناعاتك الثقافية إلى دين جديد يستحق أن تموت من أجله، وتعتبر الآخرين ممن لا يعتنقونه كفارًا ..

كان شخير (جابر) قد بدأ يتعالى هو راقد في الركن منكمشًا على نفسه..

ماذا يريد من الحياة ؟.. لماذا يظل حيًا ؟

لو هددته بسكين لصرخ ولركل يدي .. لماذا ؟...

في الضوء الخافت جلست أخته جوار جرمينال تنظر لها وهي شبه نائمة..

جرمينال نائمة كطفل .. تتحرك شفتيها .. تهمس من روح معذبة: ليلى .. ليلى ... ليلى هي أمها طبعًا (فلا احد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا).. للمرة الأولى أراها مجرد طفلة معذبة تريد العودة إلى أمها. لم أر جرمينال إلا ثائرة ملولاً متعالية. لابد من النوم على الأرض كي تظهر لي حقيقتها ..

ظلـت (صفية) بضع دقائق تنظر ثم مدت يدها في حذر إلى شـعر جـرمينال وراحت تتلمس خصلة منه .. ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحسس أناملي في وجل وفضول عندما كنت في حديقة حيواننا.

هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلاً ثم غاصت في النعاس ثانـية .. لكن الفتاة فعلت بالضبط ما توقعته .. وثبت للخلف مترًا بطـريقة زادتنـي اقتناعًا بنظرية القرد تلك .. هذه حركات غير بشرية .. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها ..

قالت الفتاة بصوت مبحوح:

ـ"شـعرها جميل .. جميل جدًا ونظيف .. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا .. ليس بشعر كهذا !"

ثم مدت يدها إلى يدي فأمسكتْ بأناملي برفق وقالت:

ـ"هل ترى الفارق ؟"

نعـم أرى الفارق .. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقصـفة الأظفـار .. الغريب أن الأولى هي يد الرجل والثانية يد الأنثى ..

قلت بلا مبالاة:

ـ"كنا في الظلام .. يمكنك أن تخدعي أي واحد في الظلام، وكنا سنعود بسرعة .."

ثم أشرت لأخيها النائم وقلت:

ـ"من أين يعرف هذا كله ؟"

ـ"يصـمم أن يقرأ .. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهـي أشـياء لم تعد تباع .. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحـدًا .. علـى الأقل لن يسرقك الآخرون .. هذه الكتب ملقاة هنا مـنذ سـنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.. إنه ..."

ثـم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنها ستبصق رئتيها خارجًا .. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر:

ـ"هذا درن .. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج، وهو لا يجدي على كل حال"

ثم أشارت لأخيها النائم وقالت:

ـ"هو من طبقة (التلامذة).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعـات مـنذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملاً، ولم يستطيعوا أن يصـنعوا شيئًا بما تعلموه .. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي .. منذ عشـرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق ..لم لو يكن أبوك ضابط شرطة أو رجل أعمال أو تاجرًا يورثك تجارته، فلا فرصة لـك على الإطلاق وسوف تنضم لهؤلاء الذين يشمون (الكلة) في الخرائب.. "

ثـم تـثاءبتْ كـثور وأغمضت عينها .. رحت أرقبها وأنا جالس.. مليحة بلا شك لكن كيف يمكن أن تجد هذه الملاحة تحت كـل هـذه الخشـونة والقذارة ؟..أن تزيل كل هذه الأعوام من المعانـاة والفقر والجوع ؟.. مستحيل .. هذه الفتاة ستتزوج واحدًا

مـــن هؤلاء يوسعها ضربًا ثم تموت في إحدى نوبات غضبه .. لا يبدو أمامها مستقبل آخر ..

لا أعتقد أنني نمت ..

لو سألتني لقلت لك إنني لم أنم ..

لكـــن هناك ذلك الضباب الذي يحيط بك ويتأرجح بين الكثافة والخفـــة .. الوعـــي يـــنغمس في مستنقع ويخرج منه .. كذا كان نومي ..

-3-

الصـــباح .. لا إفطار لأن وجبة واحدة تكفي المرء .. دعك من أننا كنا زاهدين في الطعام كل الزهد.

الصباح و(جابر) خارج الدار ..

الصباح وصفية تقوم بأعمال غريبة من نوعها ..

تمزق الأوراق من مجموعة من كراسات المدارس القديمة ..

تقطع بعض العلب من الورق المقوى إلى شرائح طويلة ..

تسكب سائلاً أسود في إناء ..

تجمع أعواد ثقاب تالفة في كيس ..

تلحم قطعا من البلاستيك..

تبري بقايا صابون وتضع عليها بعض البوتاسا الكاوية ..

تسكب بعض الماء في البطارية ..

تمزق قطعة من الليف إلى أشلاء ..

غـــريب حقًـــا هـــو جدول الأعمال المنزلية لدى نساء هؤلاء القوم. قال (جابر) إنه لا يهمني أن أعرف كل شيء وهذا رأيي . ليســـت مـــتابعة نشـــاطات الصراصـــير ذات أهمـــية إلا لعلماء الحشرات..

لن أسألها عن شيء .. لن أسألها عن تمزيق كراسات المدارس القديمة، ولا عن سبب تقطيع علب الورق المقوى.. لن أسألها عن السائل الأسود ولا عن سبب جمع أعواد الثقاب التالفة.. لن أسألها عن لحام البلاستيك ولا بري قطع الصابون .. لن اسأل عن الماء في البطارية ولا تمزيق الليف ..

صراصير ..

جرمينال تراني أراقب (صفية) في فضول .. تهمس جرمينال في أذني:

ـ"لا تقل إنك تريدها .."

قلت إنني لا أمانع .. لها مذاق خاص فريد يختلف عن مذاق الفتيات اللاتي اعتدتهن . اللاتي لهن نفس العطر والشعر الحريري والوشم والقرط في الأنف أو الشفة السفلى .. اعرفهن وأحفظهن كما تحفظ أنت الدجاج .. لا توجد دجاجة تختلف عن الأخرى ويمكنك أن تشعر بأنك أكلت هذه الدجاجة من قبل، أما هذه فلابد أنها تجربة تختلف .. لكني لن أجازف بمغازلتها ونحن تحت رحمة (جابر)..

لن أجازف بمغازلتها وطبقات القذارة تغلفها وربما تغلف روحها ..

لن أجازف بمغازلتها وهي تسعل دمًا كل خمس دقائق..

* * *

لم يفعل (جابر) شيئًا طيلة هذا النهار .. لما سألته عما ينوي عمله بنا قال في غموض:

ـ"انتظرا حتى الوقت المناسب .."

ـ"ولماذا لم تتخلص منا ؟"

ـ"لأنني أمقت العنف من الطرفين، ولأنكما جاهلان لا أكثر.. لم تفعلا إلا ما يفعله الفأر الذي يحاول سرقة بعض الخبز لأنه لا يعرف شيئًا آخر .. هذه غريزته وتلك فطرته . لكنكما لستما فأرين .. هذا ما أحاول أن أخبركما به .."

ثم أخرج علبة بها بعض الشحم، ولوث أنامله ثم قال وهو يضع يده جوار خدي:

ـ"بعد إذنك !"

ـ"تفضل .."

هكذا لوث وجهي ووجه جرمينال .. بعناية ودقة هذه المرة.. قام بتلويث أيدينا ثم انتخب لنا ثيابًا أكثر قذارة .. هذه المرة كانت هناك أستاذية لا شك فيها في لمساته، حتى بدت جرمينال كالمتسولين واعتقد أنني أبدو بصورة أسوأ.. ثم شرح لي كيف نمشي وكيف نتكلم ..

ـ"هؤلاء قوم رأوا كل شيء وعرفوا كل شيء، لذا هم لا يتكلمون تقريبًا .. قللا كلامكما قدر الإمكان .. مثلاً لو أردت شراء شيء راق لك فلا تسأل عن الثمن كتلاميذ المدارس .. امسك الشيء بغلظة وانظر في عيني البائع متسائلاً.. لا تقل شيئًا.. سوف ينظر في عينيك بشراسة ويقول لك (مائة) مثلاً، ولا يزيد .. عندها تأتي بحركة بذيئة من إصبعك وربما تطلق صوتًا قصيرًا من حلقك .. ثم الق له بخمسين ولا تتكلم .."

ثم فكر حينًا وأضاف:

ـــ"العـــادات الحمـــيدة تقتل هنا .. لابد من أن تبصق على الأرض مـــن حـــين لآخـــر .. تحسس عضوك التناسلي من فوق الثـياب من وقت لآخر .. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل .. هذه لمسات مهمة وتقلل من النظرات الفضولية لكما"

قـــال لي إننا بصدد جولة يريني فيها ذلك العالم الذي اجهل كـــل شـــيء عنه.. قال إننا حران لو أردنا الفرار لكنه لا يضمن حياتينا لحظة أخرى بعد هذا ...

ــ"سوف ترتكبان جملة من الأخطاء، ولسوف يمزقونكما في اللحظة ذاتها .."

هكـــذا غادرنـــا الكـــوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر .. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء .. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر ..

ـــ"إنهـــا أخلاقـــيات الزحام .. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة .. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ .."

سألته وأنا أمسك بيد جرمينال الممتقعة ذعرًا:

ــ"لماذا تستمرون في التكاثر إذن ؟"

ــ"لأن التكاثر هو رفاهية الفقراء الوحيدة .. دعك من أن كل هـــؤلاء يعـــتقدون أن واحـــدًا من أبنائهم سيغير كل شيء .. في

انـــتظار هـــذا المجهول يتكاثرون، والصبي يسعى بحثًا عن رزقه كدجاجـــة .. لا أحـــد يعرف إن كان قد مات أو أكل أو نام .. في ســـن الحاديـــة عشـــرة يـــتعلم استنشاق (الكلة) وبعد هذا يضطر لارتكـــاب الجريمة كي يتعاطى ما هو أفضل .. طبعًا من يسرقه فقيـــر مثله لأنه لا احد يستطيع أن يسرق منكم .. مستقبل مشرق كما ترى .."

ثم حك رأسه وابتسم:

ــ"برغم هذا انخفض معدل خصوبتنا كثيرًا .. جيلان كاملان أكـــلا طعامًا ملوثًا ويعج بالهرمونات .. هكذا صار من المعتاد ألا ينجب المتزوجون لكن المحصلة النهائية هي أننا نتزايد بلا توقف على كل حال .. كانت هناك فرق إخصاء ثم انتفت الحاجة لها .."

هتفت جرمينال في ذهول:

ــ"فرق إخصاء ؟"

ــ"نعم .. ألم تسمعي عنها ؟.. مجموعات من رجال الشرطة الملثمين يهاجمون الفتيان .. بسرعة وبدقة جراحية يخدرون الفتى ويقطعون حبله المنوي ثم يخيطون الجرح ويفرون .. بهذا يصير عاجـــزًا عن الإنجاب للأبد.. في المتوسط كان يتم تعقيم ثلاثة فتية في الليلة الواحدة"

ــ"وماذا حدث بعدها ؟"

ـــــ"متدينون كثيرون في يوتوبيا قالوا إن هذا حرام .. فلنعتمد علـــى الطعام الملوث ليقوم بالتعقيم بنفسه بدلاً من أن نتحمل نحن الـــوزر ! .. وهكـــذا تـــزايد نشاط تلويث الطعام، وقد تمت زيادة

جرعة مادة الجوسيبول في الزيوت التي نتعاطاها إلى أعلى معدل ممكـــن لها، وهذه المادة شديدة الفعالية في قتل الحيوانات المنوية وتدميـــر نســـيج الخصية .. برغم هذا نحن نتكاثر كالبكتريا .. لا تـــوجد طـــريقة للقضاء على البكتريا في العالم مهما استعملت من مضادات حيوية فعالة .. إنها تجد طريقًا دائمًا .. "

سألته السؤال الذي كان يلح علي ليلاً:

ـ"ولماذا لا تثورون ؟"

انفجر يضحك حتى سال دمعه وقال:

ـــــ"هـــذا شـــيء يتكرر من حين لحين .. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع قد صارت تاريخا بائدًا .. لقد تعلـــم مـــن هم فوق من أخطاء الآخرين .. لن يرى أحد ثانية شاه (إيـــران) الـــذي يحلق بطائرته بحثًا عن بلد يؤويه، ولن ترى جثة (شاوشيســـكو) أو (موســـوليني) معلقة في ميدان عام .. إن النظام الأمني معقد متطور اليوم .. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها ومهمـــة كل منها حماية الحكام .. إن ثورات اليوم هي أقرب إلى (هوجة) ثم تحلق طائرات الهليوكوبتر لتلقي عدة قنابل وتطلق عدة طلقات فيتفرق الجميع .. "

فـــي هـــذه اللحظة اقترب منا رجل رث الهيئة له لحية غير حلـــيقة، وإن كانت ثيابه توحي بأنها زي رسمي غير معتنى به .. ومد يده لنا:

ـ"هل معكما شيء يؤكل ؟"

هز (جابر) رأسه وواصل المشي .. ثم قال:

ـــــ"إنهم في كل مكان... لا توجد أعمال .. ما لم يجد عملاً في مستعمراتكم بالساحل الشمالي فلا أحد يريد منه شيئًا .. سوف يقضـــي حـــياته يبحث عن بقايا الطعام الملقاة في أكوام القمامة ثم يموت بالدرن ذات يوم فيجدونه جوار جدار .. هذه هي حياته .. "

كـــنت في هذه اللحظة قد بلغت قمة التقزز والذهول .. أتذكر (يوتوبـــيا) وبيتـــي والـــدولارات التـــي أبعثـــرها .. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقًا له. أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمســـة مـــن هؤلاء يوميًا ... لست مستعدًا لحظة للتخلي عن هذا كلـــه، لكنـــي كذلك لا أبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر .. الآن فقط أفهـــم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي .. لو تركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا .. لا أعرف كيف وصل الأمر لهذا الحد لكن لابد من أن يستمر ..

جـــرمينال راحـــت تغلي وترتجف .. وراحت تغمغم من بين شفتيها:

ـ"يا الله !.. أريد أن أعود !.. أريد أن أعود !"

ضغطت على يدها كي تخرس ...

* * *

كـــان هناك رجل يقف وسط زحام حوله، ويبيع زجاجات بها سائل ملون مدعيًا أنها العلاج الشافي من الدرن والسرطان .. إنها خلطـــة من الأعشاب صنعها هو ولا يعرف سرها اللصوص في (يوتوبـــيا) كما قال.. إنهم ينفقون مالهم في هراء يبتاعونه بأغلى الأسعار بينما العلم كله هنا ..

عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..

هذه أدوية لا قيمة لها إلا انها رخيصة !.. أي إنها تعطيك مزية أن تتعاطى شيئًا ولا تنتظر الموت عاجزًا ..

هناك رجل يقف أمام منضدة خشبية مقلوبة عليها أجهزة صغيرة .. يقول صائحًا:

ـ"أفضل أجهزة سرقناها من (يوتوبيا).. تعال الآن !..."

وتوقفت عيناي على شيء ونظرت لـ جرمينال فوجدتها تنظر لذات الشيء في نهم ..

كان هناك جهاز محمول صغير على تلك المنضدة، وعلى بعد متر واحد منا !

لم يكن هذا جهاز محمول ..

كان فراشًا نظيفًا ووجبة ساخنة وحمامًا وجنسًا وفلوجستين وكئوس خمر وبيتًا وأصدقاء ...

صورة الجهاز الفاتنة لم تفارق ذهني ...

غادرنا الزحام فتأخرت جرمينال قليلاً جوار أحد الأزقة، وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوسعها ..كل مكان يصلح .. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شبكة المجاري صارت تاريخًا .. في الماضي كانت الحكومة تتشدق بتجديد شبكة المجاري، لكنها أهملتها عندما صارت هناك

وسائل أخرى للاستيلاء على المال وبعد ما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق .. فلتأخذكم مصيبة ..

غابت جرمينال في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:

ـ"إنه مليء بالشباب النائم !"

قال (جابر) ضاحكًا:

ـ"إنهم تحت تأثير (الكلة) ومسحوق الصراصير .. لا تخافي.. لو أن ملكة جمال الكون تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن .. ربما انتهى أمرهم كبني آدمين أيضًا !"

هكذا عادت إلى الزقاق المليء بشباب لم يعودوا رجالاً.. ...

فجأة سمعت ضوضاء ..

فجأة رأيت منظرًا يشبه الغوغاء عندما هاجموا الباستيل .. حوالي عشرة رجال يحملون السيوف والعصي ويهرعون نحونا.. وهتف أحدهم وهو يشير لنا:

ـ"هؤلاء سرقوا المحمول !.. أنا رأيت الفتاة تدسه في جيبها!

-4-

إذن هي فعلتها !..

متى وكيف ؟.. لم ألحظ هذا قط ...

انقض بعضهم على الزقاق فهرعت ألحق بهم، لأجد جرمينال تستند إلى جدار، وهي تمسك بالمحمول كأنها كانت تحاول طلب رقم .. رقم أمها في (يوتوبيا) طبعًا ... كانت ترتجف وعلى وجهها أعنف رعب رأيته في حياتي .. قطط قليلة أظهرت هذا الهلع وهي محاصرة في ركن زقاق ..

من فرط الانفعال راحت تهرش صدرها وشعرها في فظاظة وبحركة مضحكة، كأنها تقول لهم: أنا لست من تظنون .. أنا عامرة بالبراغيث !.. انظروا !!!

همس (جابر) في أذني:

ـــ"أحمقان !... من الذي يبيع المحمول وبه خط ؟... هذا يسهل اقتفاء أثره !"

خرج الرجال من الزقاق وهم يمسكون بجرمينال.. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التي يجيدها الرجال مع النساء.. لقد تحول هؤلاء القوم إلى مخلوقات أبعد ما تكون عن البشر .. قشرة المخ لم تعد تؤدي أي

دور معهم .. فقط يتحركون للجنس أو العنف .. الاغتصاب يمنح الشيئين معًا ..

قال (جابر) وهو يقف وسط هؤلاء المسعورين:

ـــ"اسمعوا .. هذه الفتاة جائعة .. أكثر جوعًا منا .. كلكم سرق يومًا بسبب الجوع .. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها .. "

ثم هوى على خدها بصفعة ألقت بها مترين إلى الوراء:

ـــ"متسول يسرق متسولاً !.. كانت الحمقاء تحلم بالاتصال بأخيها الذي خطفوه في (يوتوبيا) !"

هنا فقط هدأ الجميع، وقال أحدهم وهو يرفع يده بما معناه (انتهى التجمع يا رجال):

ـــ"لن يعود .. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم .."

كانت جرمينال تبكي فعلاً، فازداد بكاؤها حرقة .. هذه جاءت في الوقت المناسب لأنهم تفرقوا وهم يضربون كفًا بكف ..

عندما ابتعد الجميع، دنا منها (جابر) ووجه لها ركلة في خصرها أسقطتها أرضًا، وقال:

ـــ"يا بنت الـ (..)... أقسم بالله أن هذه آخر مرة أحاول حمايتكما .. قلت لكما أن تتصرفا على مسئوليتكما الخاصة لو لم تنفذا أوامري.."

* * *

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد

أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

* * *

نهضنا ومشينا وراء (جابر) في خجل ونحن نبصبص بأذيال وهمـــية .. لقد جاءت إذن اللحظة التي يصفعنا ويركلنا فيها واحد من هؤلاء .. صحيح أنه فعل ذلك كي لا يمزقنا آخرون، لكنني لا أقـــبل أن يمد أحد يده علي .. حتى (مراد) و(لارين) .. لقد رددت الصـــفعة لـــ (مراد) ذات مرة .. أصيبت (لارين) بنوبة هستيرية لأننـــي مددت يدي على أبي، فقلت لها إن هذا ليس تفضلاً منه .. أما وقد جاء بي للعالم فعليه أن يتحمل مسئولياته في شجاعة ..

قلت لجابر في اشمئزاز:

ــ"لو ظننت أننا سنبقى هنا للأبد فأنت مخطئ"

قال دون أن ينظر لي:

ــــ"لــم أتوقع هذا .. كما قلت أنتما حران في أن تتصرفا أو تفـــرا لكني أعرف ما سيحدث بعد دقيقة .. لو أردتما البقاء معي فعليكما الامتثال التام لكل ما أقول .. أنا من يضع الخطط ويختار اللحظة المناسبة .. "

أذناه مليئتان بالصماخ ..

أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل حقير ..

نظارته ملحومة بالنار ..

عينه تالفة ..

غده أسود ..

أخته حيوان مصدور..

طعامه فاسد ..

كتبه بالية ..

أحلامه موءودة ..

أفكاره عتيقة ..

أظفاره مسودة ..

شعره مجعد معجون بالتراب ..

اسمه (جابر)...

قومه رعاع ..

أصدقاؤه حثالة ..

برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر ..

بـــرغم هـــذا كلـــه لـــم يرتم عند قدمي متوسلاً لي كي أقطع ذراعه..

برغم هذا كله يصفع جرمينال ويهددنا ..

ما أحمق هؤلاء القوم وما أشد سذاجتهم !

* * *

كانت هناك بائعة عجوز تضع كومة من الصحف .. صحف جديـــدة غيـــر مقروءة .. يبدو أنها تبيعها بالكيلو .. وثمن خمسة الكيلوجرامات بيضة كما قالت ..

ابتاع منها بعض الصحف مقابل علبة ثقاب، ثم عاد لنا وهو يتصفح تلك الأشياء .. ناولنا واحدة منها وقال:

ـــ"هذه هي الصحافة الوحيدة الرائجة اليوم .. خليط عجيب مريض من الجنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة .. غلاف الجريدة لا يخلو من عبارات (كشف المستور) و(في الغرف المغلقة) و(الجن) و(الاغتصاب) .. الخ .. مع تلميح عام يوحي بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون .. لابد من عدة صور عارية من المجلات الأجنبية، مع وضع علامة سوداء على العينين، كأنهم لا يريدون فضح البريئات صاحبات هذه الصور .. وبرغم جو الانفلات الجنسي العام فإن العاهرات الفقيرات قبيحات كالأبالسة، لهذا يبتاع الشباب هذه الجرائد بحثًا عن فتيات حسناوات نظيفات لا يبصقن دمًا .. أما النوع الآخر من الصحافة .."

وفتح جريدة أخرى وأردف:

ـــ".. فهو عبارة عن رسائل حب موجهة للحكام .. هذه يصدرها قوم من يوتوبيا وسواها كانوا منا ثم سمح لهم الحكام بأن يعيشوا هناك، مفعمين بعرفان بالجميل وامتنان وتهيب يبلغ درجة العبادة .. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفا مشويًا ينز منه الدهن .. لهذا يكتبون كلامًا لا يعني أي طرف ولا أحد يقرؤه إلا الحكام.. بالواقع لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون له. هذه المقالات نوع من بصبصة بذيل فكري. فيما مضى كانت هناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب، ثم فهموا

أن تدخلهم في رسائلَ الحب هذه قلة ذوق .. كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك !"

ثم أضاف وهو يطوح بالجريدة:

ـــ"هذه الصحف سلعة ممتازة للف الأشياء... كما أنها حلت مشاكل غياب المياه !.. "

لم أكن ذا مزاج للمزاح، فقلت له:

ـ"ماذا تنوي عمله معنا ؟"

ـ"سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعًا .. لا نية لي في قتلكما .."

ـ"وكيف ؟"

نظر لي في غموض ولم يتكلم ..

الجزء الرابع

الفريسة

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت بعد يوم واحد. لا أكثر فلا تقل العكس .. لا تكــرر هــذا الهــراء وإلا طعنـــتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة..

كـــنت أكـــرههما كالصراصير . من الجميل أن تكره بصدق وحـــرارة. منذ دهور لم أكره شيئًا بهذا الصدق .. كل شيء ألقاه بعاطفـــة اشمئزاز عميقة لكن لا كراهية. أنت لا تكره البصاق .. فقط تشمئز منه ..

من الجميل أن تكره ...

برغم كراهيتي تلك – وربما من أجلها – لا أنوي قتلهما ..

هما تحت رحمتي تمامًا ولو فتحت فمي فلن يطول الأمر قبل أن أراهمـــا قطعًا من اللحم المفروم تأكلها الكلاب لو كانت هناك كلاب.

لكني بالفعل لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

هـــذه هـــي النقطة التي تحدد كل شيء .. الدليل الوحيد الذي يخبرنـــي أننـــي ما زلت آدميًا ولم أتحول إلى ضبع. إنني في هذا

أتفوق عليهما .. أتفوق على أهلي وجيراني .. أتفوق على ما كنته أمس ..

لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدًا

كلانا هنا وهناك نعشق العنف ..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات ..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم ..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت ..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل ..

هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله، وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه ...

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة ..

هنا نحترف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن .. العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن ...

لهذا لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ...

ولكن كيف أفعل هذا بينما (سمية) تزوم كضبع غاضب ؟

* * *

الشخصية المصرية قد لاقت الكثير من المرمطة في المائة عام الأخيرة حتى صارت كزوجة عاملها زوجها بتوحش عدة أعوام، من ثم أصبحت هي ذاتها أقرب إلى الوحشية والشراسة. وكلما زاد الجهل قلت سيطرة قشرة المخ على السلوك، وهذا يجعل الجرائم التي ترتكبها الطبقات الدنيا حيوانية بالمعنى الحرفي

للكلمة ..وفي النهاية يقف القاتل ناظرًا لعدسات الصحافة النهمة بعينين غبيتين زائغتين ويكتفي بترديد: (أصل الشيطان وزّني)..

* * *

(سمية) جاءت في الخامسة عصرًا إلى كوخي ..

كانت ثملة أو هذا ما قدرته من مشيتها المترنحة ولسانها الثقيل. جلست القرفصاء على الباب مباعدة ساقيها لتتفادى بركة ماء آسن صغيرة هناك، وراحت تهرش شعرها بعنف ...

قالت وهي تنظر لي بعينيها القاسيتين الصغيرتين:

ـ"أنت كاذب بن كاذب .."

كنت أعرف ما تريد قوله، لكني تظاهرت بالغباء وسألتها عما هنالك . فقالت:

ـ"أنت تعرف أن الفتى ضربني على عنقي .. بعدها لم أشعر بشيء .. لكنني أعرف جيدًا أنه ضربني ... أنت كذاب بن كذاب.. قلت إنني سقطت دون أن يلمسني، ولولاك لمزقه الرجال.."

قلت وأنا أجلس القرفصاء بقربها:

ـ"أنا رأيتك تسقطين ولم أر أنه ضربك كما تقولين"

كانت غبية حيوانية .. لن اندهش لو قضت حاجتها وهي جالسة حيث هي... حيوان بليد يجلس هناك على عتبة داري ويهرش رأسه بلا توقف ..

ـ"لم استطع أن أعمل يومين كاملين .. أحيانًا أشعر كأنه أطار من عقلي برجين .. عمي يضربني بلا انقطاع .. "

ثم قالت في حزم ووجهها القبيح يتقلص:

ــــ"سوف أخبر عمي أن الرجل ضربني .. السرجاني سوف يأخذ بثأر ابنة أخيه .. "

نعـــم .. السرجاني لا يرحم من يتلف بضاعته .. أنا أعرف هذا.. كله إلا عدة الشغل .. السرجاني يغار على (عزة) .. يحمل مطـــواة قـــرن غـــزال يمكـــنه أن يرشـــقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهي (عزة) .. السرجاني أخذ قرنيتي مني

ملت على سمية وقلت همسًا:

ــــ"ســـمية.. أنا أعرف هذا الفتى .. بيني وبينك هو صاحب مزاج خاص .. هناك رجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى .. "

قالت في دهشة:

ــــ"كـــل الرجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى، والسبب أنهم أنجاس وأولاد (...)"

ــــ"لـــيس كـــل الضـــرب سواء .. الضرب الذي تتلقينه من الزبائن يختلف عن تلك الضربة القوية على جذور العنق .. الفتى صـــاحب مـــزاج يحب أن يضرب الفتاة حتى تفقد وعيها وتصير عجينة لينة بين يديه .. وقد صارحني بهذا، وهو مستعد أن يدفع.. والغاوي ينقط بطاقيته"

وأجريت حسبة صغيرة على أصابعي:

ــــ"أنـــت لـــم تعملي يومين .. لنقل إن هذا معناه مائتين في اثنـــين.. أربعمائة جنيه كاملة .. سوف نضيف مائة من أجل الألم

الـــذي تشعرين به .. إذن هي خمسمائة جنيهًا لك وحدك .. بما أن عمك لن يعرف شيئًا فلن يأخذ شيئًا .."

ضحكت ضحكة رقيعة متوحشة .. وقالت:

ـ" خمسمائة جنيهًا لي وحدي ؟"

ـ"نعم ... "

ـ"وأنت ؟"

ــــ"أنا مستفيد طبعًا .. لهذا أدافع عنه .. من واجبي أن أوفر لـــه مـــزاجه مـــا دام يدفـــع .. إنه – بيني وبينك – يسرق سكان يوتوبيا. لهذا معه مال كثير ومعه فلوجستين .. "

ـ"فلوك ؟"

قالتها بنظرة حالمة تسبح في سموات التأمل الكيميائي..

ـ"نعم .. فلوك .. تصوري هذا ؟"

ـ"هيء هيء هيء ..."

تركتها حيث هي وهرعت إلى داخل الكوخ .

كان الفتى جالسًا على الأرض ينظر إلى السقف شارد الذهن، بينما الفتاة تجلس جواره وقد أراحت رأسها على كتفه. قلت له في عصبية:

ـ"اسمع .. هل معك فلوجستين ؟"

ـ"أنت تعرف أنك أخذت كل ما كان معي .."

ـ"هل معك نقود ؟"

قالت الفتاة وهي تعبث في حذائها:

ـ"معي .. كم تريد ؟"

ـ"هاتي خمسمائة جنيه.. بسرعة !"

ناولتـــي ورقة نقد فئة خمسمائة، فكومتها في يدي وخرجت إلى حيث كانت سمية جالسة هناك القرفصاء تردد بلا توقف كأنه لم يكن هناك أي حوار قبل هذا:

ـــ"هو ضربني .. ضربني .. وأنت كذبت .. لولاك لمزقه السرجاني"

دسست الورقة في يدها وقلت:

ـــ"هي لك وحدك .. قلت لك إن الفتى صاحب مزاج .. فقط لا تقحمـــي الســـرجاني في الموضوع. الفتى قد يطلب منك خدمة أخرى اليوم أو غدًا وسيدفع ما تريدين"

ـ"رقبتي !"

وتحسســت عــنقها، وبــدا أن هذه الدعابة السخيفة السطحية راقــت لهــا، فــراحت تضحك بلا انقطاع, ثم أفرغت أنفها على الأرض وابتعدت ....

لا تتكــر أنتـــي أجيد معالجة الأمور الصعبة ... سوف تعود لـــتطلب المزيد لأن الابتزاز لعبة من تعفنت روحه، لكني آمل أن يكون الفتى وفتاته قد عادا لعالمهما قبل ذلك ..

-2-

فـــي أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي آخر إحصاء أمكن عملـــه، كـــان هناك 35 مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر، وكـــذا كانت البطالة التي وصلت إلي أعلي معدلاتها العالمية (10 ملايـــين عاطـــل).. لاحـــظ أن 78% مـــن مرتكبي الاغتصاب عاطلـــون.. أي أن جـــريمة الاغتصاب هي في الحقيقة اغتصاب للمجـــتمع. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجـــتمع دور قضـــبان الجرافيت في المفاعلات الذرية .. إنها تبطئ التفاعل ولولاها لانفجر المفاعل .. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار ..

وهـــذا هـــو مـــا حدث بالضبط، لكن الانفجار لم يقض على الطـــبقة الثـــرية .. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين ..

فقـــط أدركـــت الطـــبقة الثـــرية أنه لا حياة لها ما لم تتعزل بالكامـــل، وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقـــيمون الحفـــلات الماجـــنة بيـــنما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجـــي. (قـــناع الموت الأحمر).. أين قرأت قصة تحمل هذا العنوان ومتى؟ ومن كان كاتبها ؟.. لا أذكر ..

قــرأت كثيرًا جدًا .. قرأت كل شيء .. حتى أذابت الحروف بعضــها ... وحتى صرت لا انتمي للأغيار ولا انتمي ليوتوبيا .. فـــي كـــل موضع أنا غريب مختلف شاذ أحمق غير متكيف غير مندمج...

هل كان في وسع أحدهم منع هذا ؟

لا أعــرف .. أنا لست اقتصاديًا ولا سياسيًا .. دعك من أنني لم أتلق تعليمًا منتظمًا منذ دخلت الجامعة المجانية ..

فقــط كانــت هــناك مؤشرات مخيفة وكان على الجميع أن يتــنبهوا لها.. عندما تشم رائحة الدخان ولا تنذر من حولك فأنت بشكل ما ساهمت في إشعال الحريق ..

عــندما أفحص صحف العشر السنوات الأولى من القرن أشم الكثير جدًا من الدخان .. أوراق الصحف تفوح برائحة الدخان .. فلماذا لم يفعل أحد شيئًا ؟

لأن الجميع تواطأ علينا ..

الجميع تواطأ علي أنا كي أعيش بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب ..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة ..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ..

بلا أقراص للصداع...

بلا مؤشر ليزر ..

وأخيرًا بلا أحلام ..

يــومًا مـــا سأموت ولسوف أعود لهم في صورة عفريت أو شـــبح ولســـوف اجعل حياتهم جحيمًا .. لن يكون أحدهم في مأمن مهما توارى بعيدًا عني ..

لكني لن أقتل هذين ...

* * *

الفتى كان جالسًا لا يعمل شيئًا ..

قلت له بلهجة آمرة:

ـــــ"أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفي، فلابد من أن تجرب أن تجد قوت يومك .."

نظـــر لـــي فـــي تحد . يتمنى ان يمزقني لكنه تحت رحمتي بالكامـــل، لهـــذا يصمت .. لو كان يملك شيئًا واحدًا محترمًا فهو الذكاء. قال لي:

ـ"معنا بعض المال .. فهل هذا ما تريد ؟"

قلت في اشمئزاز:

ـ"لا أريد شيئًا من مالك .. أريد أن تساعدني.."

كان هناك الكثير من العمل في شبكة مترو الأنفاق، لكني لن أطلعـــه علـــى شيء منها. لو عاد هذان لعالمهما فلا أريد أن أجد السُـــلطات تقـــوم بسد شبكة المترو بالكامل بالخرسانة .. سيكون معنى هذا أن نختنق ...

تلـــك الشـــبكة هي عالمي الخاص الذي أعرف كل شبر منه وأصير ملكًا ...

قلت لـــ (صفية) همسًا وأنا أناولها القنينة:

ـ"كما قلت لك .. لا تكثري منه ولا تجربيه"

وغادرت الكوخ مع الفتى ماشين وسط أطنان المخلفات وبقايا المجـــاري، وســـط الصـــبية الـــذين يتشاجرون ويقذفون بعضهم بالمخلفات ...

مشـــينا نحو ربع ساعة وسط بقايا المدينة هذه، وأخيرًا وصلنا لســـاحة المعلم (طه) التي تحيط بها السياج. على الباب يلقاك ذلك البلطجي الذي لا أعرف دوره بالضبط، وهو غالبًا يرهب القادمين لا أكثر. يقدم لكل منا مدية . في الداخل مساحة من الأرض تقرب

مـــن مساحة ميدان صغير، وهناك نحو خمسين من أمثالنا يعملون بلا توقف.

هـــناك كومة في الركن من الدواجن النافقة . كومة ارتفاعها خمســـة أمتار تقريبًا .. لا رائحة لأنها نفقت اليوم فقط في مزرعة ما خارج القاهرة.

علـــى الكـــومة الثانية تقف مجموعة من النسوة يقمن بإزالة الـــريش .. هـــناك قيزانات ماء ساخن يتصاعد منها البخار. يجب الحذر في هذا الجزء بالذات بسبب الحروق.

ترتفع الكومة الثالثة من جثث الدجاج العارية .. ترتفع في كل لحظة .. لو كان البشر دجاجًا لكان هذا المكان مقبرة جماعية ...

قلت للفتى وأنا أخرج مديتي:

ـــ"تنظف أم تشفي ؟"

نظر لي في حيرة وقد تقلص وجهه اشمئزازًا فقلت مفسرًا:

ـــ"أي تشق البطن وتخرج الأحشاء أم تقوم بتجريد العظام من اللحم ؟"

ـــ"لن أستطيع أن أقوم بهذا ولا ذاك "

نظرت حولي لأتأكد من أن أحدًا لن يسمعني:

ـــــ"لا أحـــد يعيش هنا من دون عمل .. عمل قذر .. عمل حرام .. عمل غير قانوني .. ليكن ما يكون .. المهم أن تعمل .. لن أصرف عليك مليمًا بعد اللحظة .."

قال في غيظ وقد أوشك على الانفجار:

ـــ"تتحدث عن الإنفاق علي كأننا ننام في قصر ونستحم بماء الورد ونأكل نعامًا .. كم يكلفك هذا الفول الحامض ونومنا في عشة دجاج ؟"

صه !... رفعت إصبعي إلى شفتي منذرًا:

ـــ"لو سمعوا لهجتك المدللة هذه ومخارج حروفك لسلخوك بدلاً من الدجاج .. انت تفضح نفسك في كل لحظة !"

هز رأسه في عناد البغال ثم اتجه إلى الكومة المجاورة التي يعمل عليها أربعة .. كومة (تشفية) الدجاج .. بالمدية ينزع اللحم عن العظام وهو يضع الدجاجة كاملة على حجر أملس .. يلقي باللحم على كومة مجاورة وبالعظام على كومة أخرى ..

خط تجميع لابد أنه كان سيروق للخواجة (فورد) الذي صدعونا بالكلام عن عبقريته في ابتكار خطوط تجميع السيارات في القرن الماضي ..

قلت له وأنا امسك بالدجاجة الأولى وأشق بطنها:

ـــ"هاك ... عندما ننتهي سوف نخرج من البوابة الخلفية وسوف نأخذ نصيبنا .. نحو دجاجة لكل واحد منا .. من أين تحسبنا نحصل على اللحم ؟.. هذا الحفل لا يقام يوميًا .. هناك أيام يكتفون فيها فلا يسمح لنا بالعمل أصلاً"

قال في اشمئزاز:

ـ"دجاج ميت ؟"

أطلقت صوتًا قبيحًا من حلقي وقلت:

ـ"هل حقًا يبالي قومك بالذبح الحلال أيها النصاب ؟"

ثم قلت لنفسي إنهم على الأرجح يبالون .. يدققون جدًا في ذبح الدجاج لكنهم لا يدققون بصدد ذبحنا .. لا يسمّون علينا ولا يحسنون قطع الوريد.

راح يؤدي عمله معذبًا مشمئزًا تعسًا كاسف البال حانقًا مغتاظًا ..

لا بأس .. بعض أنواع الانتقام لا تتضمن القتل وبرغم هذا هي ممتعة شهية ..

جرح نفسه ألف مرة ، وصار الدم الذي يغطي يده خليطًا من دم الدجاج ودمه. دعه يجرب .. دعه يتعلم .. دعه يتألم ...

كان هناك فنان عالمي اسمه شارلي شابلن.. أنا أعرفه ولا ادري إن كنت مثلي أم لا . ذلك الفنان صنع شهرته من إظهار بطله الفقير الضعيف ينتصر على الأثرياء وعلى رجال الشرطة.

قال ذلك الفنان ذات مرة: يلقى الأثرياء في أفلامي شر مصير .. يتعثرون وينزلقون فوق قشور الموز، لأن أغلب الناس يحبون أن يروا الأغنياء المتغطرسين يفقدون كرامتهم . السبب أن معظم الناس في الحقيقة فقراء ..

تباطأ الفتى أكثر من مرة فقلت محذرًا:

ـ"إنهم يراقبون .. لو رأوك تتكاسل لطردوك شر طردة ولن تأخذ شيئًا .."

وهكذا ظللنا نعمل نحو الساعة .. لكني لم أكن مستعدًا لقضاء اليوم كله هنا ..

-3-

عندما ازداد الزحام وكثرت الوجوه، لم أعد أرى الفتى ..
ربما كان هناك جواري لكنه غارق في الدم والعرق فلا يبدو منه شيء ..

هــنا فقــط أمكنني أن أهرع إلى الباب الخلفي للساحة، وكان (خليل) يقف عليها كالعادة .. نظر لي في دهشة وقال:

ـــ"مرة أخرى ؟.. لن أحميك للأبد .."

قلــت وأنا أناوله المدية الدامية (لأنه من الممنوع أن تعود بها لدارك):

ـــ"بل تفعل .. إن هي إلا نصف ساعة .. "

ـــ"فلوك "

ـــ"لك هذا .. أنا أفي بوعودي.."

هكــذا أفسح لي الطريق كي أمر. هو يعرف إنني سأعود من الطريق ذاته ولسوف يسمح لي بالدخول والعمل بعض الوقت قبل أن أتقاضى أجري كاملاً. إنه يقف هنا لمنع هذا الشيء بالذات ... أركض ركضًا هذه المرة لذا بلغت داري خلال ربع ساعة .. لن أحتاج إلا إلى عشر دقائق ثم أعود في ربع ساعة آخر ..
كانت صفية بالداخل بانتظاري..

غســلت وجهي ويدي بسرعة من آثار دم الدجاج. قد أتحمل القذارة لكني لا أتحمل الدم أبدًا.

فــتاة يوتوبيا فقدت وعيها طبعًا بسبب مزيج دواء السعال مع أبــي صليبة مع الأفيون الذي شربته من يد صفية. لا أحد يتحمل هــذا المــزيج اللعين ما لم يكن قد جربه خمس مرات من قبل. لم تكــن جثة هامدة فأنا لا أرغب في مضاجعة جثة، لكنها كانت في حالة من الاستسلام التام الناعس.

كانت صفية الوفية قد فعلت كما أمرتها .. غسلت وجه الفتاة المتسخ وقدميها القذرتين اللتين صارتا تشبهان أقدام نسائنا..

قلت لها وأنا ألهث بعد ركضي:

ـــ"شكرًا يا صفية .. والآن انصرفي .. لن أستغرق أكثر من عشر دقائق"

مسحت بأناملها على شعر الفتاة الناعم وقالت:

ـــ"خــذ راحــتك .. إن جلدها أملس كجلد الأطفال .. أنت تستحق الراحة .. شقيان .. تحتاج إلى شعر نظيف وجلد أملس .. خذ راحتك ... فليغسل جمالها أدران روحك "

الغريب أنها كانت متأثرة من أجلي، رطبة العينين، ومسلكها أقــرب إلــى حــنان الأمهات .. بدا لي كأنها ترغب في الانتظار لتــرى مــا سأفعله ولتطمئن على أنني سعيد، لكني لا أسمح بتاتًا بشيء كهذا .. صفية سوف تظل نظيفة .. تعرف لكنها لا تسمع.. تسمع لكنها لا ترى .. ترى لكنها لا تلمس ..

غادرت (صفية) المكان فانفردت وحدي بفتاة يوتوبيا ..

عاجزة .. غائبة عن الوعي .. لا تقدر على عمل شيء ..

إنه النصر !..

هذا هو النصر الوحيد الذي أستطيع تحقيقه .. قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هو قهر طبقة بأكملها. قهر ظروف ...

سوف ترى على يدي ما لم تره من قبل. أليس فتيان يوتوبيا فتيات لهن شوارب ؟.. ألسنا نحن الفحول الذين ترتجف نساؤهم خوفًا منا واشتهاء لنا ؟.. ألا تتمنى الواحدة منهن بين ذراعي زوجها أو عشيقها أن يغتصبها أحدنا ؟.. ألسنا نحن كابوس رجال يوتوبيا وهمهم المقيم ؟.. أليست الرجولة قمحًا ينضج في شمس المعاناة اليومية ؟

الفتى ملطخ بالدماء في ساحة المعلم طه وسط الدجاج، وأنثاه هنا تحت رحمتي ..

كنت أرتجف من هول الفكرة. توارت (عزة) .. (عواطف).. (نجاة).. توارى حلم ما بعد الجنس ..

انتقامي سوف يكون مريعًا .. انتقامي سيكون جديرًا بأن يكون انتقامًا ..

سوف ......

سوف ...

ماذا يحدث لي ؟

كلما نظرت لوجهها لم أر إلا وجه صفية الأسمر. تلاشت فتاة يوتوبيا المدللة فلم أعد أرى إلا وجه صفية القسيم المفعم بالبؤس برغم هذا ..

لقد انكمشت رغبتي تمامًا، وصار جسدي قطعة من الثلج.

فقط رحت أضرب خديها في غلظة وهي تئن ولا تفتح عينيها. أهزها من كتفيها في عنف .. أجذب خصلة شعر هنا وهنا ثم لا شيء .. هذا كل ما لدي ...

لا أستطيع ولا أرغب ....

ماذا دهاك ؟... هل سلطة يوتوبيا عليك مطلقة إلى هذا الحد؟.. هل صارت يوتوبيا تسيطر على هرموناتك وغدتك النخامية وغدتك الكظرية ونسيجك الكهفي وجهازك السبمثاوي؟... هل إلى هذا الحد تغلغلت فيك ؟

أهي سيطرة يوتوبيا، أم هي سلطة ضمير كاسحة تجعلك ترى كل فتاة هشة معدومة الحيلة كأنها صفية أخرى ؟

لن تعرف .. لن تعرف أبدًا ..

فقط أنت موقن من شيء واحد: فلتنم هذه الفتاة في سلام، ولتعد أنت إلى المذبح لتواصل انتزاع أحشاء الدجاج...

عندما عدت إلى ساحة المعلم طه لم أبحث عن الفتى ..

فليذهب للجحيم .. رحت أواصل عملي المرهق في تنظيف أحشاء الدجاج، وبعد ساعات تلاشت الكومة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولم تعد هناك سوى بضعة أكوام يتم نقلها إلى الأسواق ..

بمجرد أن تنتهي كومتك تتجه للباب الخلفي للساحة حيث يقف (خليل). يناول كل من يخرج نصيبه من الدجاج .. مجموعة أشلاء أعتقد أنها تكفي لعمل دجاجة كاملة.

مشـيت بعض خطوات فوجدت الفتى يقف ينتظرني وفي يده نصيبه.

كـان غارقًـا في الدم والعرق.. بعض الدم كان دمه هو .. ناولنـي مـا فـي يده بطريقة تقول (ها هو ذا ما أردته .. فخذه واخرس)..

قلت له محاولاً أن يخرج صوتي مزاحًا:

ـ"اليوم تأكل من عمل يدك للمرة الأولى"

قال من بين أسنانه:

ـــ"أولا كـف عـن الدروس الأخلاقية فقد سمعت منها ما يكفينـي.. ثانيًا أنا لن أذوق هذا الشيء .. لقد عافت نفسي الدجاج للأبد"

وهكذا عدنا صامتين إلى بيتي ..

لـن يعـرف ما حدث، لأن الفتاة ستكون (مسطولة) ولسوف تعتقد أن أي شيء رأته أو شعرت به أضغاث أحلام..

لا أريـده أن يعـرف .. ليس لأنني أخشاه .. بل أخشى أن يعرف أنني عجزت عن إيذائه عندما كان هذا في وسعي ..

يبدو إنني عاجز عن قتلهما كذلك ..

بونابـرت وقـف يومًا أمام الجنود الذين جاءوا للقبض عليه وفتح صدره وقال: أنا هو إمبراطوركم فاقتلوني !.. لكن الجند لم يفعلـوا .. هيبة الإمبراطور جعلتهم يجثون على ركبهم أمامه وهم يبكون .

لكن الفتى ليس بونابرت .. تبًا !... إنه مجرد حيوان شهواني مـن يوتوبـيا لا يملك أي قدر من الهيبة .. المشكلة أن يكون قد خلـق حاجـزًا نفسـيًا من العبودية داخلي .. المشكلة أن أقتنع أنا نفسي بأنه أفضل وأروع وأكمل وربما أتقى..

أنا عاجز عن قتلهما ..

السؤال الوحيد هو : هل هذا لأن يوتوبيا أقوى مني، أم لأنني أقوى مني ؟

-4-

احنا شعبين ..شعبين ..شعبين
شوف الأول فين والتانى فين؟
وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت
انتم بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر..
والريحه سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

السرجاني هو أول من فاتحني في الأمر.

أنا لا أحب السرجاني فهو من كلفني قرنيتي. صحيح أن الحياة استمرت بعد ذلك لأن الخطوة التالية هي أن يفتك أحدنا

بالآخر.. وأنا لن اقدر على قتله .. إذن الخطوة التالية هي موتي أنا .. لهذا توقفت الأمور عند هذا الحد ..

صحيح .. كل هذا صحيح لكنك لا تستطيع أن تحب من أتلف قرنيتك مهما حاولت. هو كذلك لا يحبني لأن (عزة) كانت تميل لي.

السرجاني هو من جاء لي حيث كنت جالسًا خارج الدار أدخن البانجو جالسًا القرفصاء أفكر.

غرس السنجة التي يحملها في الطين الجاف، وجلس جواري وقال وهو يتناول اللفافة من يدي بلا اكتراث:

ـ"صباح الطعامة يا أبو جابر"

ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وراح يتأمل الرماد المعلق في شكل قمع طويل. وقال كأنه رجل مهموم بعظائم الأمور:

ـ"هذه الفتاة التي تعيش في بيتك .. لا أتكلم عن صفية طبعًا.. صفية على رأسنا من فوق .."

ـ"مالها ؟"

قلتها في اشمئزاز وأنا أعرف ما سيقول حرفيًا ..

قال وهو يعيد لي اللفافة محاذرًا أن يسقط الرماد:

ـ"تلزمك ؟"

ـ"ولو لم تكن ؟"

ـ"اليد البطالة نجسة "

ـ"تكلم بوضوح يا سرجاني"

الموضوع مهم فلا مجال لهذه اللغة التلغرافية التي نستعملها منذ عشر سنوات .. لغة من رأى كل شيء ولم يعد يدهشه شيء.. الآن مجال الشرح والتطويل ..

قال لي بهدوء:

ـ"يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير من المال بدلاً من أن تكون عبئًا عليك. الصنف شحيح وقليل والموجود رديء .. أنت ترى وجه سمية البشع الذي يذكرك بالأبالسة .. هذه الفتاة ستكون مكسبًا لنا معًا.."

قلت في ضيق:

ـ"أنت أخذت عزة .. ألا تكفيك ؟"

ـ"هذه مهنة شاقة .. مهنة قذرة تبلي ملامح الأنثى وجسدها تمامًا .. لابد من التجديد"

ابتسمت في سري .. لو أردت انتقامًا فأي انتقام أبشع من هذا؟.. فتاة يوتوبيا تجد نفسها في هذا الوسط بين هؤلاء. لكني لا أريد ذلك .. سمه انتصارًا على نفسي أو انتصار يوتوبيا علي .. فقط أعرف أنني سأحميهما ما دمت حيًا وما داما بيننا ..

قلت وأنا أناوله لفافة التبغ:

ـ"هي لا تحب هذا الكار .. هي حرة يا أخي.."

ـ"كما تحب .."

ثم فكر قليلا وأضاف التهديد الذي عرفت أنه آت لا محالة:

ـ"بيني وبينك .. نحن لا نعرف من هذان حقًا .. أنت قلت كلامًا وألقيت لنا ببعض الفلوك لنتشاجر عليه كالكلاب. سمية

تحكي قصة مختلفة ..هذان يبدو عليهما الثراء ولتقطع ذراعي إن كانا عاشا يومًا واحدًا من الجوع قبل قدومهما .. من أين جاءا بكل هذا الفلوك ؟... أنت تعرف كما أعرف أن هذين من يوتوبيا .. لا تقل لي إنهما كانا يعملان هناك بل هما من أصحاب الدار .. أيام كانت هناك كلاب كان عندي كلب يحرسني ويأكل من طعامي وينام تحت سقف داري، لكن دعني أؤكد لك أنه لم يبد مثلي في أية لحظة !.. عاش كلبًا ومات كلبًا .. الغبي ابن الغبي هو من يخلط بين الكلب وصاحبه. هذان ليسا كلبين .. هذان يملكان الكلاب .. فلماذا جاءا هنا ؟.. يمكننا أن نتخيل !.. "

قلت دون أن أنظر له:

ـ"قصّرْ !"

ـ"سأقصر .. أنت تعمل مع (عبد الظاهر).. لو عرف أن اثنين من يوتوبيا يعيشان تحت سقف بيتك فماذا سيفعل ؟.. وماذا عن (بيومي) ورجاله ؟.. الكل سوف يرقص طربًا وسوف تأتي المنطقة كلها إلى دارك لأخذ حقوقها .. صدقني يا صاحبي لا أحد يريد لك الأذى، ولا أحد يقبل أن تمس شعرة من صفية .. صفية عزيزة علي كأنها .. كأنها سمية ابنة المرحوم أخي .."

قلت في غيظ ساخر:

ـ"نعم .. أنت تحرس سمية وترعاها جيدًا فعلاً .. كلنا يعرف هذا"

نظر لي ولم يتكلم، وانصرف دون أن يعيد لي اللفافة ..

* * *

لم أكن أحمل هم (بيومي).. كنت احمل هم (عبد الظاهر)..

بيومي وشلته يمثلون الأعداء، وهم خطر في كل وقت وكل زمن، بينما (عبد الظاهر) وشلته هم مصدر حمايتي ونفوذي، ولو انقلبوا علي فأنا ضائع ..

عبد الظاهر كان هناك في أنفاق المترو يناقش خطة البايرول للمرة الألف .. منذ أعوام وهو لا يكف عن مناقشة هذه الفكرة وأنا أقول له إنه مجنون ..

ـــ"هؤلاء الناس قد يمزحون في كل شيء لكن لا مزاح في البايرول"

ـــ"هذا ما يجعل الخطة ممتازة، وتضعنا في موقف قوي حقيقي"

قلت له ساخرًا:

ـــ"إن المخدرات أطارت صوابك يا بن الـ (.....) .. تعتقد أنك تكافح الإنجليز في واحد من تلك الأفلام القديمة الأبيض والأسود .. دعك من هذا الهراء وفكر في كيفية العثور على كلب جديد"

عبد الظاهر كان بلطجيًا لكنه (جدع) حار الدماء .. ليس مجرد ضبع تثيره رائحة الدم مثل بيومي .. لهذا فضلت أن أكون معه من البداية ..

كان بعضنا يجلس فوق عربة مترو يلعب (البرغوتة) والبعض جالس في ركن من المحطة يشم الكلة .. إنها الظهيرة لكن أنفاق المترو ليل دائم أبدي .. ربما لهذا تشعرنا بالألفة.

جميل أن تعرف أن كل هؤلاء معك .. يمكنهم أن يهبوا لنصرتك لو تعرضت للخطر .. لهذا أعرف أن صفية سوف تتزوج واحدًا من هؤلاء. لا سبيل لها للحياة غير هذا .... مخيف بما يفوق الوصف أن ينقلبوا عليك ..

قال لي (عبد الظاهر) وهو يدقق في وجهي بعينيه الواسعتين العسليتين اللتين توحيان بالجنون:

ـــ"هناك كلام كثير عنك يا صاحبي في الآونة الأخيرة .. "

رفعت وجهي في توتر ونظرت لوجهه المترقرق في ضوء المشاعل..

ماذا ؟..

قال في ثبات:

ـــ"أولاً أنت فررت من مشاجرتنا الأخيرة مع بيومي .."

ـــ"أنت تعرف أنني ضعيف ولا قبل لي بالانتصار على هؤلاء .. كنتم تنهزمون وكان بوسعي أن أبقى، لكنك كنت سترثيني الآن باعتباري شهيد الجدعنة .. هل كنت تفضل هذا ؟.. على الأقل أنا هنا حي أرزق وأتلقى اللوم منك.. لا تنس أن سليمان مات فلم تستطيعوا الدفاع عنه .. "

لم تكن هي أول مرة أفر فيها ولن تكون الأخيرة فلماذا يهتم بالأمر ؟

قال من جديد:

ـــ"وهذان اللذان في دارك ؟.. الكلام كثير عنهما .. يقولون إنهما من يوتوبيا وإنك تنكر هذا في إصرار .. ما الذي تدبره ؟"

لا توجد أسرار في هذه المنطقة ... هذا واضح ..
أخشى ما أخشاه يحدث الآن ..
فتحت كفي وأصابعي ورحت أقسم:
ـــ"والله العظيم .. والله العظيم .. أنا لا أعرف من أين جاء هذان .. فقط كانوا سيفتكون بهما وأنا لم ...."
قال مقاطعًا:
ـ"كف عن القسم .. كل الناس تقسم طيلة الوقت .. اسمع .. نحن نريدهما .. سوف نعرف أصلهما وفصلهما .. لو اتضح أنهما من يوتوبيا فلسوف نلعب بهما لعبًا ممتازًا .. لن يجدهما الذباب الأزرق، ولربما ساومنا عليهما .. لو كانا مسكينين مثلنا لوجدنا لهما عملاً وحياة .."
رآني مترددًا فقال في حزم:
ـ"جابر .. فكر جيدًا .. لا تخسر كل شيء من أجل كلبين .. لا أعرف أهميتهما لك لكنهما بالتأكيد ليسا أكثر قيمة من صفية !"
ثم نهض وبصوته الجهوري صاح في الرجال المتفرقين في المحطة:
ـ"هلموا !.. أريد هذه المشاعل في مكان واحد .. أحد رجال بيومي هنا في الأنفاق ومعه بانجو .. من منكم يأتيني به ويظفر بنصف ما معه ؟"
عندما غادرت المحطة كنت أعرف يقينًا أنني يجب أن أتصرف الليلة ..

لقد اشتمت أنوف كثيرة الرائحة، وتجمع الذباب حول العسل لو كان ما آويه في داري عسلاً.
لو أردت لهما الحياة فليفرا الليلة ..
فليفرا فلا يقع علي لوم سوى لوم الغفلة والغباء ..
الليلة قبل أن يحدث شيء آخر ..

* * *

قلت لهما إنهما سيرحلان الليلة، وخرجت أدبر أمري .. هناك الكثير من الترتيبات يجب أن تتم . عدت لهم بعد ساعتين وكانا مستعدين كما نصحتهما. أحكما مسح وجهيهما بالقذارة وثيابهما صارت أقذر .. الغريب أن صفية أختي بدت نظيفة لامعة براقة وإن لم تبد مسرورة جدًا، حتى خطر لي أنها ربما تميل للفتى ..
لا .. ربما هي تميل للفتاة باعتبارهما من السن ذاتها تقريبًا..
سوف تفقد الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها في حياتها ..
قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...
أعرف أنني سأموت الليلة فلا تضايقني من فضلك ..
دعني أمارس آخر لحظات لي في الحياة ..
دعني أجرب أن احلم ...

الجزء الخامس

الصياد

-1-

سوف نرحل هذه الليلة ..

(جابـــر) اخبرنا بهذا .. قال إن الشكوك تتكاثر والذباب يحوم وعلامات الاستفهام تتكاثف والأقاويل تزداد و.. و ..... إلى آخر هذا الهراء ..

وسوف نرحل هذه الليلة ..

نرحل ؟

ربما إلى أعلى .. ربما إلى أسفل .. ربما إلى يوتوبيا ..

لـــو لـــم نتحـــرك في اتجاه عمودي فهناك أمل في أن نظل أحياء..

سوف نرحل هذه الليلة ..

* * *

عند ساعات المساء الأولى قال لنا إن علينا أن نعد كل شيء. ســوف يتغيب ساعتين ثم يعود ليجدنا متأهبين. نعد كل شيء ؟.. هل يوجد معنا شيء نعده ؟. بالطبع لا.

لكن (صفية) قالت لنا إن الإعداد هنا يعني المزيد من القذارة .. أحضرت بعض الشحم الأسود وراحت بلمسات أستاذية تضيف القذارة على وجوهنا . أعطتنا ثيابًا أسوأ مما كان علينا ..

قلت لها وهي تمسح وجهي:

ـ"ماذا ستفعلين بصدد هذا الدرن ؟"

قالت كأن الأمر لا يعنيها:

ـ"سوف أتعاطى منقوع الأعشاب الذي تعده أم (عبير)، وأدفئ صدري، وفي النهاية سأموت وسط بركة دم .. هذا هو كل شيء .. لكن (جابر) لا يصدق هذا .. يعتقد أنني سأشفى"

ـ"هناك أدوية للدرن ..."

ـ"نعم .. وكلها عندكم .. ماذا تتوقع أن أفعل ؟"

أردت ان أكذب .. أقول لها إنني سأعود وسأجلب لها بعض الدواء من أبي .. أبي الذي لا يمكن تعاطي قرص أسبيرين في أي موضع من مصر إلا عن طريقه، لكني وجدت أن هذه أسخف كذبة ممكنة. يمكنني أن اترك لها تذكارًا لكنه لن يكون علبة دواء.

لما أدارت صفية ظهرها لنا قلت لجرمينال همسًا:

ـ"اسمعي .. أريد أن تغادري الكوخ عشر دقائق.."

نظرت لي في حيرة ثم تقلص وجهها وهتفت مشمئزة:

ـ"هل تمزح ؟... هل هذا هو الوقت المناسب ؟.. "

ـ"لابد لي من تذكار . قلت لك إن لها مذاقًا مختلفًا مثيرًا .. هذه آخر فرصة في حياتي لتجربة هذا المذاق .. لو رحلنا لانتهى الأمر .. "

كان وجهها الآن في أقبح صورة يجمع بين التوحش والاشمئزاز والشراسة. أبشع نمر غاضب رأيته في حياتي :

ـ"نحن تحت رحمتهم يا حلوف !..."

ـ"أعرف كيف أجعلها تصمت .. والآن أخرجي !"

نظرت لي في كراهية عمياء. لم أعرف من قبل أنها تغار علي لهذا الحد. أعتقد أن الأمر يتعلق بكبرياء الأنثى أكثر منه بالغيرة. في يوتوبيا تعرف أنني مع فتاة أخرى كل يومين تقريبًا فلا تتكلم، لكن الأمر بدا لها هنا مهينًا خاصة أنني لم ألمسها منذ جئنا.

انفردت بـ (صفية) على ضوء المشعل، ومنذ اللحظة الأولى عرفتْ ما أريد و....

لا ..

هذا ليس حقيقيًا !

إنها تقاوم بشراسة وعنف .. تقاوم كثور بري هائج.. تخمش .. تضرب .. تركل .. تبصق .. تصرخ .. تولول .. تتشنج .. تبكي .. تسب .. تلعن .. تعض ... كنت احسب الأمر أسهل من هذا بكثير. المفترض أنها ستذوب لفكرة أنني اشتهيتها. رجال الأغيار ليسوا رجالاً حقًا . لقد قضى الجوع والطعام الفاسد والجوسيبول على رجولتهم، ونحن نظفر بنسائهم بسهولة طيلة الوقت في يوتوبيا، بينما يكتفي رجالهم باصطناع الفحولة والجبروت .. أليست الرجولة حيوانًا يحتاج إلى تغذية جيدة ورياضة وشمس ساطعة ؟.. إذن هم لا شيء .. لا شيء ....

لكنها قاومت بعنف وبسالة، وكنت أنا معتادًا على العنف على كل حال لذا قيدتها تقييدًا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي

نزعته. كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال ..

اغتصاب مريضة سل !.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربما أحكيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لو عدت سالمًا.

مددت يدي بقطعة قماش إلى سطل من الماء ملأته هي، ورحت أبلل قطعة القماش وأنظف وجهها وقدميها لتبدو بشرية نوعًا ... بالواقع لم أمس جزءًا منها قبل أن أنظفه بعناية ...

رحت أردد في مزيج من نشوة وكراهية وأنا انتهي:

ـ"يا لقذارتك !... يا لقذارتك !.. هه هه !"

(صراخ مكتوم .. شهيق...)

ـ"ليس فقركم ذنبنا .. هه هه ... ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم ؟.. هه هه ... "

(أنين .. بكاء ..)

- "عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية . ثم لم تعد هناك مصالح حكومية .. لم تعد هناك رواتب .. هه هه ... "

(شهيق .. حشرجة ..)

ـ" أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. هه هه ... ما ذنبنا نحن؟"

(دموع .. نهنهة ..)

ـ"عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض، هززتم أنتم رءوسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم .. هه هه ... تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.. هه هه ... "

(عواء .. غرغرة ..)

ـ"أنتم اقل منا في كل شيء .. هذه سنة الحياة .. يجب أن تقبلوها .. لم يعد أحد قادرًا على تغيير أي شيء.. شيء .. شيء .... شيء .. شيء .. شيء .. هه .. هه ..شيء .. هه .. هه.. شيء .. !"

(توسل مكتوم .. هستيريا ...)

كنت قد انتهيت .. صار جسدي كبالون خاو من الهواء، وفي هذه اللحظة بالذات سمعت جرمينال تقول من وراء ظهري:

ـ"ألم تنته بعد أيها الخنزير ؟.. أخوها سيعود في أية لحظة.."

ارتميت منهكًا على الأرض جوار الفتاة المنهارة، وقلت لاهثًا:

ـ"صحيح .. أخوها .."

ومن جيبي أخرجت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح عندما كنا ننظف الدجاج . وضعتها تحت عنقها وقلت لعينيها الجاحظتين:

ـ"اسمعي .. ولا حرف عما حدث هنا .. لو أن حرفًا قيل فلسوف ....."

هتفت جرمينال:

—"أنت لن تقتلها .. هي مجرد طفلة !"

—"ومن تحدث عن قتلها ؟.. سأقتل (جابر) يا صغيرة .. سترين المدية تمزق أحشاءه قبل أن يفهم معنى كلامك .. ستعيشين وحيدة للأبد ولسوف تصير حياتك كلها تكرارًا مملاً لما حدث الآن، لأن (جابر) لن يحضر لك الطعام بعد اليوم.. (جابر) لن يحميك .. "

ظلت صامتة فعدت أكرر السؤال:

—"هل فهمت ؟"

وبهدوء أزحت اللثام عن فمها .. وفككت قيودها. أمرت جرمينال بأن تعنى بها قدر الإمكان لتبدو بشرية ..

قالت جرمينال وهي تبصق على الأرض:

—"هل استرحت يا ابن الـ (...) ؟"

قلت في برود:

—"استمري .. أنت تكتسبين لغتهم وعاداتهم يومًا بعد يوم . هذا مفيد لنا كما تعرفين"

-2-

إلا الحزن والصمت ..

يمكنك أن تغير معالم جريمتك لكن الحزن والصمت يبقيان ..

هكذا ظل (جابر) ينظر في فضول لأخته وهو يعد حاجيات الفرار. لكن الفتاة لم تتكلم. إنها باسلة فعلاً.. دعك من أنها كانت صادقة في مقاومتها لي وأنا لم أر قط فتاة صادقة في مقاومتها. هناك دومًا لمسة تصنع وادعاء. هذه الفتاة كانت تكرهني فعلاً.. تكرهه أحشائي كما يقول الأمريكان ..

قال (جابر) بعد قليل وعلى وجهه علامات الجدية :

—"أنا لا أثق بقسمكم لأنكم تتعاملون معنا كأننا تحت مستوى الآدمية .. وتكذبون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف، لكني سأجرب لمرة واحدة .. ما ستريانه سيبقى سرًا .."

ثم أردف وهو ينهض :

—"لقد اضطررت لإجراء صفقات كثيرة .. كلفني هذا مالاً.."

قلت في ضيق:

—"إن أبي ...."

رفع يده في كبرياء وقال:

—"لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك ..والآن هيا بنا ."

وتناول أداة غريبة عبارة عن قضيبي خشب متعامدين كأنهما صليب ..

وســط الظــلام مشينا في الحارات والأزقة المتسخة التي لا ينيرها إلا مشعل هنا أو هناك..

وسط باعة السمك الفاسد ..

وسط باعة المخدرات الرخيصة ..

وسط باعة الأجساد ..

وسط الشباب الذين يمزقون بعضهم في مشاجرات لا تنتهي .

وسط الأفاقين والنصابين وباعة الأعشاب ..

وسط برك الماء الآسن وبقع الكيروسين ..

وسط الترنشات التي لم تكسح منذ شهرين..

وسط جثث الكلاب التي تم تجريدها من اللحم ..

وسط باعة الأجهزة المسروقة ..

وســط الصــبية الجالســين يلعبون القمار على قفص دجاج مقلوب ..

وسط كل هذا نبتعد ..

ثلاثة أشباح لكنها لا تجلب الرعب بل تشعر به..

جــرمينال لا تكف عن هرش رأسها وصدرها كأن هذه هي علامة النجاة .. أنا منكم .. أقسم بالله أنني منكم !

* * *

هناك على جدار مهدم جلسنا ..

قال لي جابر وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــ"أعتقد أن هناك عيونًا كثيرة تراقبنا .. لذا سيتم الأمر كما يلــي .. ســوف تــدور حول الجدار كأنك تريد قضاء حاجتك ثم تركض عبر الخرابة منحنيًا .. هل تعرف عدو الظليم ؟.. لا ؟ .. هــذه فرصة كي تعرفه .. عندما تبلغ الناحية الأخرى من الخرابة انتظرنا .. نحن سنلحق بك بذات الطريقة .."

كــنا جالســين في الظلام كما قلت لك، فرأيت (جابر) ينزع سترتي المتسخة عن كتفي فيضعها على قطعتي الخشب فتبدو كأن هــناك من يلبسها على كتفيه. فهمت .. مع الظلام والمسافة يشعر مــن يراقبنا أننا ما زلنا ثلاثة. هكذا وثبت لأدور حول الجدار في اللحظة التي رفع فيها رايته الغريبة مرفرفة.

رحت أركض عبر الخرائب وقدمي تلتوي من تحتي وأنفاسي متقطعة . على الأقل لن تطاردني الكلاب المسعورة لأنه لا وجود لهــا.. أركض في الظلام لا أعرف إن كان ما أدوس فيه صخورًا أم فضلات بشرية أم جثثًا متعفنة أم مجرد غبار ..

وصلت إلى النهاية فوجدت جدارًا آخر مهدمًا .. وقفت جواره ألهث ...

بعــد قلــيل ســمعت صوت لهاث آخر .. ورأيت جرمينال تركض وهي منحنية لتلحق بي ..

وقفت جواري وهي عاجزة عن التنفس ..

ســرعان ما ظهر (جابر) وهو يركض بدوره. لقد ترك سترة واحــدة معلقة هناك .. وهي تعني أن اثنين يقضيان حاجتهما بينما الثالث ينتظرهما ..

هــو ذا يتجه إلى وكر قذر نهبط إليه منحدرين على درجات محطمـــة .. وفـــي نهايـــة الساحة ترى حافلات عتيقة يسيل منها الزيت والكيروسين وتهدر بلا انقطاع ..

ـ"أيوه الساحل الشمالي !.. أيوه يوتوبيا !!"

هذه الكلمات جعلت قلبي ينحشر في حلقي ..

الــوطن .. برغم كل شيء هو الوطن ... أنا الذي لا انتمي لمكان ولا أشخاص ولا مبدأ ..

ســقط قلبي في بطني .. معنى هذا أن هناك سبيلاً للعودة .. لكــن مــاذا عــن الحراس ؟.. ماذا عن المارينز والوصول إلى يوتوبيا ؟.. رباه !..

من العسير أن تقترب من يوتوبيا من دون تصريح .. سوف يفرغ فيك المارينز طلقات بنادقهم ..

لن يصغوا لك وأنت تحكي قصصًا معقدة عن تجربة الرجولة وكل هذا الهراء ..

لو لم تتم مكالمة مع أبي فلا جدوى ...

* * *

الــرحلة تنطلق وأنا أرقب (جابر) الجالس صامتًا في الظلام أمامــي .. كــل شـــيء فـــي الحافلة يئن ويصر ويهتز.. رائحة الكيروســين تــزكم الأنفـــاس. أختلس النظر إلى جرمينال ثم كل الوجــوه التعسة للعمال الذاهبين للعمل في مستعمرات الساحل .. الفــرانين وجامعي القمامة وصائدي الفئران ... كلهم سيء التغذية ممتقع الوجه .. كلهم مهزوم .. كلهم واهن .. كلهم ..

ســوف يــبدأ عملهــم فـــي ورديات الليل .. سيعملون عشر ســاعات متواصـــلة ثـــم يعـــودون . معنى هذا انهم يقضون بين ظهرانيهم أقل من سبع ساعات ..

من الخير لهم أن يموتوا هنا والآن.

ربـــاه !.. فلوجســـتين !.. كم أتحرق شوقًا له !.. لو سارت الأمور كما أتمنى فلسوف أتذوقه من جديد خلال ثلاث ساعات أو أقل ..

أرقـــب معـــالم الطريق ونحن نتجه إلى الاسكندرية .. حتى بعلبة الكبريت المعدنية هذه نحن نتحرك للأمام ...

معـــالم الســـاحل الشمالي .. وجه (جابر) الصلب يرتسم على معـــالم الطريق المظلم .. فقط تلتمع عليه أضواء الطريق من حين لآخر ..

ما هي خطته ؟ ..

الاحتمال الأخطر انه يرتب لنا مقلبًا ما .. ربما يريد التخلص منا بعيدًا عن أرضه .. جثتان في الصحراء ولا يعرف أحد من فعلها .. للأسف ليس لدي حل إلا أن أثق به ثقة مطلقة ..

لماذا ينهض هنا ؟... لماذا يتبادل الهمسات مع السائق ؟

إنه يعود ليجلس جوارنا وإن بدا أنه ينتظر شيئا ..

فجأة توقفت الحافلة وسمعته يقول لنا في الظلام:

ـ"هيا بنا !!"

ماذا تقصد ؟

نحن في قلب اللامكان بالمعنى الحرفي للكلمة ..

-3-

الحافلـــة تـــنطلق مبـــتعدة بمن فيها.. بقعة ضوء تشحب في الظلام .. سفينة أمل تمخر مبتعدة لتتركك في جزيرة قاحلة تموت عليها ...

ظـــلام اللـــيل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار.. أعـــرف أننـــي أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكنه يملك عنصر المبادأة والمفاجأة ويعرف الأرض ...

لـــو تســـرعت بالفـــتك به فلربما اتضح أنه بريء وأكون قد أضعت فرصتنا ..

(جابـــر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصـــبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

الأســـوأ كان هناك بالفعل وهو رجلان تبدو عليهما الشراسة والقوة ومسلحان .. تبادلت وجرمينال النظرات .. هل حان الوقت أخيرًا ؟

لكـــن ثلاثة الرجال كانوا راكعين على ركبهم ينبشون الرمال بأظفـــارهم ومدي صغيرة على ضوء كشاف واهن .. أحدهم نظر

لـــنا في شراسة كما يفعل كلب تفاجئه أثناء النبش عن عظمة، ثم عاود العمل..

قال أحد الرجلين دون أن ينظر لنا:

ـ"هل أنت ضامن لهما يا (جابر) ؟"

قال (جابر) وهو يواصل الحفر :

ـ"مثل نفسي .."

ثـــم مد يده ودس أشياء في يد الرجل .. أعتقد أنها مخدرات فالمـــال لا يـــبدو كـــذا .. فـــتحت فمي لأتكلم فصرخ (جابر) في وجهي:

ــــ"اخـــرس يا (حنفي) !!.. عندما تدخل حاول أن تسرق لنا بعض الفلوجستين .. إن (حبارة) و(شيحة) لم يجرباه قط .."

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عـــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ـ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

أنا (حنفي) وهي (نفيسة) ؟؟ .. لا أحب الاسمين لكن لا أعتقد أن هذا هو الوقت الملائم. على كل حال اندسسنا في الفتحة ورحنا نهـــبط الـــدرجات الخشـــبية في الظلام غير عالمين إلام تقودنا..

وسمعت (جابر) يقول للرجلين:

ـ"سأوصلهما لأقرب نقطة ثم أعود .. انتظراني "

ثم سمعت جسده ورأيت ضوءه ينزل وراءنا .. فما أن صار بيننا في قاع البئر حتى صحت:

ـ"ماذا يحدث هنا ؟"

قال وهو يتقدمنا عبر ممر مظلم:

ـ"أنفاق !... منذ البداية هناك أنفاق سرية يمكننا بها الدخول إلى (يوتوبيا) لسرقة ما نريد .. من السهل أن تغادر (يوتوبيا) لكن من المستحيل أن تدخلها من دون بطاقة (عبودية).. قام هؤلاء البلطجية بحفر هذه الأنفاق وهم يؤجرونها لمن يدفع .. الثمن يكون مالاً أو مخدرات .. طبعًا من الواضح أنني أقنعت هذين أنكما فقيران مثلنا وأنكما تريدان تجربة السرقة .. لو قلت إنكما من أهل (يوتوبيا) لمزقاكما في اللحظة ذاتها.."

هتفت جرمينال:

ـ"أي أن هذا النفق يقود إلى ..."

ـ"إلى قلب (يوتوبيا).. جوار ذلك (المول) الكبير الذي نسيت اسمه .."

ـ"إليت مول"

ـ"نعم .. حيث ينتشر أمثالكم كالضباع بحثًا عن فريسة .. سعار الاستهلاك واللعاب يتساقط على الأرضية الزلقة البراقة. بينما العبيد والجواري من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم. عبد يجلب لكم العصير.. جارية تساعدكم في اختيار ثوب مناسب. خصي يقف على باب المرقص. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم"

قلت في برود:

ـ"تشبيهاتك شاعرية"

أردف قائلاً:

ـ" سوف تخرجان هناك وأعتقد أنكما لن تجدا صعوبة في الوصول لداريكما .."

قلت في انفعال:

ـ"لماذا تفعل هذا كله ؟"

فقد بدا لي مبالغًا بحق في هذا الذي يفعله...

ربما يتضمن المعروف جزءًا سلبيًا هو ألا يبلغ عنا ..هذا سهل .. لكنه تجاوز هذا الحد إلى الجزء الإيجابي .. أنفاق وبلطجية ودفع مال وتسلل ليلي .. الخ ...

لا أحد يفعل شيئًا من غير ثمن .. الثمن قد يكون مالاً .. قد يكون منصبًا .. قد يكون جسدًا .. قد يكون إحساسًا بالتفوق .. قد يكون قصة تحكيها لأصدقائك وعيناك تلتمعان تيهًا .. قد يكون تقديرًا للذات لا تستحقه..

هناك ثمن دائمًا ...

وأنا لا أقبل الشيء قبل أن أعرف ثمنه...

فكر حينًا .. توقعت ردًا بلاغيًا طنانًا على غرار (لأننا أفضل منكم) أو (لأنني لا أحب الدماء).. الخ .. لكنه اكتفى بأن هز رأسه وقال:

ـ"لأنني أريد ذلك .. "

ثم ابتسم وغمغم بشيء في الظلام فسألته عما يقول .. قال بصوت أعلى وهو يواصل طريقه:

ــ"كان عندنا شاعر اسمه (عبد الرحمن الأبنودي).. هل سمعتما عنه ؟"

ــ"لا .."

ــ"بالطبع لم تسمعا عنه .. كان هذا الشاعر يقول: احنا شعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الاول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت"

لم أفهم شيئًا .. فقط أفهم أنه يغلي من الحقد الاجتماعي .. هذا هو كل شيء ..

قلت له في الظلام:

ــ"برغم كل شيء .. أنت إنسان نبيل .."

لم يرد وواصلنا تقدمنا .. مشينا نحو عشر دقائق..

بقعة ضوء تتحرك عبر النفق .. تذيب ظلامًا ثم تغيب وسط ظلام جديد ..

صوت الخطوات ..

صوت اللهاث ..

صوت قطرات العرق تتساقط على الصخر ..

* * *

وفي النهاية أدركت أننا في قاع بئر أخرى وأن درجات صاعدة تقودنا للسطح.. هناك صخور مكومة بحيث تسهل لك

الوصول لأسفل الدرج ..بصعوبة منعت نفسي من الصراخ فرحا وجرمينال راح صدرها يعلو ويهبط ..

قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى:

ــ"لأسباب واضحة لن ألحق بكما .. أنتما في أمان الآن .. وداعًا .. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا .. فلن أكون موجودًا المرة القادمة .."

قالت جرمينال في تأثر:

ــ"أنت رائع يا (جابر).. شكرًا لك .."

لم يرد واستدار ليرجع وضوء الكشاف يحيط به كأنه رؤيا ..

لابد أنه ظل محتفظًا بتأثره حتى اللحظة الأخيرة ..

لابد أن ابتسامته الخافتة لم تفارق شفتيه بينما وجهه يهوي ليتمرغ في التراب ..

لابد أنه لم يذق الدم الذي سال من شدقيه ..

لابد انه لم يدرك أنني التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت ..

اضطررت لأن أقلبه على ظهره فسال الدم كالنهر من الفجوة الدامية التي صنعتها منذ ثانية..

عينه التالفة تنظر لي في ثبات بينما تحولت نظارته إلى فتات..

التقطت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح .. من الغريب أن مدية أخرى تطل من حزامه .. لابد أنه كان يخافنا بالقدر الذي كنا نخافه به وأراد أن يؤمن نفسه ...

صرخت جرمينال في هستيريا:

ـ"لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد ساعدنا !"

قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به:

ـــ"وانتهى دوره عند هذا الحد !.. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار .. "

للأسف لن أستطيع أن أحمل جسده صاعدًا الدرجات .. كما أنه مات على الأرجح فلن يوفر مصدرًا للتسلية .. إذن لم يعد يهمني من أمره سوى هذا الشيء الذي أخذته ولففته في السترة المتسخة التي منحها لي ..

لم يكن هناك غراب .. لم يكن هناك غراب ..

لماذا تذكرت هذا الآن ؟

تركته حيث هو وصعدت الدرجات .. ستكون كارثة لو كان قد خدعنا ..

-4-

لكن انتم خلقكم سي الملك
جاهزين للملك..
ايديكم نعمت من طول ما بتفتل لياليناا الحلك
يا عم الضابط احبسنى
سففنى الحنضل واتعسنى
رأينا خلف خلاف..
احبسنى او اطلقنى وادهسنى
رأينا خلف خلاف

عبد الرحمن الابنودى

* * *

فتحة بين الأعشاب يصعب أن يراها من لا يبحث عنها..

تغطي الفتحة قضبان متعامدة جدل أحدهم العشب بعناية بينها

لكننا عندما أزحنا القضبان وأخرجنا رأسينا، شممنا رائحة هواء البحر .. شممنا الليل المخلوط بالعطر واللحم البشري والفلوجستين ..

شممنا رائحة الدولارات وبطاقات الائتمان والخمور الباهظة

رأينا أضواء يوتوبيا تحيط بنا .. على بعد خطوات مول (إيليت) المفضل عندي .. أرى لافتته الملونة وزحام السيارات حوله .. نحن إذن في الحديقة الخلفية للمول .. نعم .. أرى تمثال المستحمة العارية الذي طالما حلمت بمضاجعته وأنا صبي ..

حمدًا لله !... لقد نجونا ..

سيكون صعبًا أن نفسر لمن يرانا أننا لسنا من الفقراء المتسللين .. الأصعب أن أخفي هذه اليد التي بدأ الدم يتساقط منها.. لكننا سنقابل مصريين أو إسرائيليين وهؤلاء يمكن التفاهم معهم .. بينما لا يمكن التفاهم مع المارينز الذين يطلقون الرصاص ثم يتكلمون ..

ساعدت جرمينال على الخروج ووقفنا هناك في البرد الذي يبعثه هواء البحر، وسط أضواء المساء الملونة وتعانقنا ..

لقد تمت المغامرة ونجونا !

لقد دخلنا الجحيم وعدنا منه. دسسنا رأسينا بين فكي التمساح وخرجنا ..

قلت لها ونحن نشق شوارع (يوتوبيا) شبه الخالية في هذه الساعة:

ـ"يمكن القول إننا لم نفقد أي شيء .."

قالت وهي تشهق في انفعال:

ـ"سوى ساعات قاسية"

ـ"لابد أنهم قلبوا الدنيا علينا"

ـ"سوف يفهمون ويغفرون"

قالت وهي ترتجف كلمات لم أتبينها فسألتها أن ترفع صوتها.. قالت:

ـ" احنا شعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الأول فين والتاني فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت .. ألم يكن شاعره يقول هذا ؟"

ـ"بلى .. وهو صادق على طول الخط !"

* * *

كانت الاحتفالات صاخبة بعودتنا..

في البداية هناك طبقة واهنة من اللوم والتبكيت .. طبقة ذابت على الفور ..

ثم يبدأ الاحتفال الحقيقي بالبطلين العائدين ..

أنهار من الخمر والفلوجستين سالت .. حكيت قصتنا ألف مرة وفي كل مرة أضيف تفاصيل جديدة تثير الخيال .. لقد صرت رجلاً .. ذهبت إلى هناك وعدت بيد أحدهم ..

كنت أحكي لهم عن (جابر) الأحمق .. (جابر) الساذج الذي لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة ..

حكيت لهم عن صفية المسلولة التي قاومت كأنها الملكة كليوباترا . يجب أن يتناسب حجم المقاومة مع قيمة ما يدافع المرء عنه .. بالنسبة لحالتها لم يكن هناك داع لمقاومة من أي نوع..

قال راسم وهو ينفث الدخان:

ـ"يتوقف الأمر على قيمة ما يدافع المرء عنه بالنسبة له وليس بشكل مطلق .. لو رأيت أمي وهي تدافع عن الفأر الصغير

الألـــيف الـــذي تـــربيه عندما أراد أبي أن يلقي به في البالوعة، لحســبتها تدافع عن أيقونة مقدسة .. بالنسبة للفتاة كانت تدافع عن أهم شيء لديها .. "

ـ"عن بكارتها ؟"

ــــ"بـــل عن إرادتها .. عن حرية اختيارها .. هذا هو فأرها الخاص"

أطلقـــت سبة بذيئة .. تبًا لك عندما تعبث الماريجوانا بخلايا مخك. إنها تجعل الناس أكثر ظرفًا لكنها تجعلك أكثر تحذلقًا وميلاً للتفلســف .. تجعلـــك ابن كلب حقيقيًا .. لكل واحد منا فأره الذي يعتبره أثمن شيء في العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير لكـــنه بالنسبة لك أهم شيء في الوجود. ترى ما هو فأري المدلل الأليف؟

أنا فأري المدلل الأليف!

لوحت بالذراع التي قمت بتحنيطها وتجفيفها:

ـ"في صحة جابر "

ـ"وصفية"

ـ"والسرجاني .."

ـ"أجدع ناس.."

ومـــن جهـــاز الهـــاي فـــاي تـــدوي أغنية جديدة من أغاني الأورجازم:

"ضعي عنقك على الصخرة المقدسة ..

ضعي حياتك على الصخرة المقدسة ..

أنظري لنصل السكين وهو يهبط فوق الوريد الثري

خائفة ؟.. أنا أحب هذا يا صغيرة ..

كـــذا أنـــت أقوى من الطبيعة ذاتها، لأنك تضخين الدماء في عروقي من جديد ..

أنتشي ..

أفيض ....

في لحظة كتلك أحبك حقًا ..

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

وتـــنهض ماهي لتطوح بحذاءيها وتأتي بحركات مجنونة .. تمـــيل بعـــنقها كأنهـــا تنيمه على صخرة ... تطوح شعرها يمينًا ويسارًا ..

تسقط على الأرض في وضع استسلام كأنها تتأهب للذبح..

كاهنة يوتوبيا الشقراء.

ترتفع موسيقا الأورجازم ونغيب وسط النيران الخضر ...

"ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك"

-5-

قطَر كل روائح الكون .. قطَر عبق السراخس في المستنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطَر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطَر البخور الذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطَر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطَر عبق كل غانيات باريس راقصات الكان كان .. قطَر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطَر الأحراش ذاتها .. قطَر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطَر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلق ذقني .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة ..ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتثاءب .. أضحك .. أبصق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس إصبعي في حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي على البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكة .. أتقلب على البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعيات يوتوبيا ...أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات على جلدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحم شعارات تقول: اقتلوا البيض .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم ..

ساعة واحدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

لكن الهاتف دق ..

كان هذا راسم يخبرني بأمور غريبة:

ـ"هل تعرف أن الطائرات معطلة ؟"

ـ"كلها ؟..لماذا ؟"

حكى لي قصة عجيبة عن مغامرة قام بها الأغيار من يومين.. لقد هاجموا قافلة هائلة تحمل البايرول عبر الصحراء .. انت تعرف أنهم يقومون بإنزاله من حاملات البايرول غربًا. لقد هوجمت القافلة وتم أسر سائقيها . وهو عمل لم يحدث من قبل ولم يتحسب له أحد. النتيجة هي ارتباك عام. ظل السائقون في الأسر بضع ساعات ثم تم إطلاق سراحهم وقالوا إنهم لاقوا معاملة حسنة لم يفهم أحد سبب هذه المغامرة ولا جدواها.

فقط عندما تم ملء خزانات الطائرات وحاولت طائرة (مصطفى بيه) البونانزا الرياضية أن تحلق لم تستطع.. بالتدقيق في الأمر اتضح أن ما في خزانها ليس وقودًا .. لا توجد قطرة

بايــرول فــيها. لقــد قــام أحدهم بملء خزانات البايرول بسائل المجاري !.

التحقيق قال إن هذا ما حدث عندما اختطف السائقون.. لقد تم إفراغ الخزانات بالكامل، ثم جاءت عربات كسح الترنشات اللعينة وقامت بملء الخزانات بمحتواها الكريه.

النتيجة هي أن محركات الطائرات تلفت كلها ..

محركات السيارات تلفت كلها. هذا ما اكتشفه من جربوا ملء خزانات سيارتهم بهذا البايرول المغشوش.

قلت لراسم ضاحكًا:

ــــ"كــنت ســأندهش جدًا لو حلقت الطائرات بوقود من الــ (...).."

وانفجرنا ضاحكين ... وتبادلنا ألف نكتة على هذه الفكرة.

قال راسم بعد ما استنفد قدرته على الضحك:

ــــ"كل هذا جميل، لكن الوضع ليس مريحًا على الإطلاق .. إصــلاح الطائرات والسيارات يستغرق وقتًا .. هل تعرف معنى هذا ؟.. معناه أننا معزولون فعلاً !"

معزولون فعلاً..

ظلت الكلمة تتردد في ذهني زمنًا ..

* * *

ازداد الأمــر سوءًا عندما جلس معنا مراد على مائدة الغذاء. قال للارين:

ــــ"لا توجد مواصلات .. الغريب أن رائحة الغائط تتصاعد مــن كــل المحركات. رجال المارينز قلقون وقد اتصلوا بوحدات الأســطول الســادس .. لابــد مــن وجود باب خلفي للفرار كما تعــرفين، وهــذا الــباب أغلق بتعطل الطائرات .. وعدوهم بأن يرســلوا لنا بعض طائرات الهليوكوبتر بمجرد أن تقترب الحاملة (جيفرسون) من مياهنا الإقليمية .. هذا يستغرق يومين .. "

رائحة الغائط من كل المحركات ؟.. بدا لي هذا مضحكًا وإن لم أكلف نفسي بالضحك. سألته في عصبية:

ــــ"هــل تتوقع أن يحدث شيء في يومين ؟... نحن هنا منذ دهور .."

قال مراد:

ــــ"هــناك كــلام يتناثر هنا وهناك... ثمة شيء يتحرك في أرض الأغيار .. إنهم يتحركون ضدنا.. "

ــــ"ومــا الجديد ؟.. إنهم يفعلون هذا مرتين في العام ويخبو حماسهم بسرعة .."

ــ"هذه المرة هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا .. يقولون إن أحــدهم ســاعد اثنــين من يوتوبيا على النجاة من أرض الأغيار وجعلهمــا يعيشــان تحــت سقفه، لكنهما قتلاه وقطعا يده بعد ما اغتصبا أخته العذراء !.. وجدوا جثته في نفق يستخدم للتسلل إلى هــنا. القصــة تســللت إلــى كل كوخ وكل زقاق هناك وأشعلت الــنفوس.. لقــد تحملوا الكثير لكن يبدو أن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.. "

رحـت آكـل محـاولاً ألا يبدو تعبير مريب على وجهي .. رسمت على وجهي تعبير رجل لم يقطع يد واحد من الأغيار.

قالت لارين في استخفاف:

ـ" إنهم قد سُلبوا كل شيء وظلوا صامتين فماذا يحدثه موت واحد من فارق ؟.. لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه .. "

ـ"بل لا تقوم إلا لأسباب كهذه .. الصخرة تحملت الكثير من الضـربات لكنها تفتتت عند الضربة الخمسين .. لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة .. "

ـ"هذه قصص أطفال .."

ـ"وهل الجموع الغاضبة سوى أطفال ؟"

* * *

انتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر.
والريحه سبقت طلعة أنفاسه
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضـرب بـبوز الجـزمة وبسـن الكعـب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

كان اسمه جابر.. وقد كان أحمق لم يفهم قواعد أي شيء... بشـكل ما يستحق الفقراء كل ما هم فيه .. إنهم أقل ذكاء من آبائنا .. إنهم ضعيفو الإرادة خاملون .. تركوا نفسهم يُسرقون كل هـذا الـزمن من دون أن يحركوا إصبعًا .. هم بهذا انحدروا إلى درجـة أقـل من مرتبة الحيوان .. حتى النحل يلدغك لو حاولت سـرقة عسـله، والدجاج ينقر أظفارك لو حاولت سرقة البيض .. بينما هم ظلوا خائفين صامتين ..

ما دامت الحياة ممكنة فلنبق صامتين ...

ما دام عشاء الليلة موجودًا فلنبق صامتين ..

لهـذا لا احمل أي تعاطف نحوهم وقد زادتني هذه المغامرة مقـتًا لهم .. حتى (جابر) هذا – يرحمه الله – كان مجرد متحذلق لا يكف عن الثرثرة ولا يفعل أي شيء ..

(مايـك رودجـرز) رجـل المارينز جاء إلى دارنا ولم يكن متأهـبًا للمزاح. عرفت أنه يقوم بجولة على كل القصور هنا مع رجـال فـي سيارة جيب عسكرية لم تتلفها مياه المجاري. قال إن علينا ألا نغادر بيوتنا إلا للضرورة .. قال إن علينا ألا نقلق . كل شيء تحت السيطرة ..

هـذه العبارة وحدها (لا نقلق فكل شيء تحت السيطرة) تعني أن نقلق جدًا ..

سأله (مراد) عما هنالك .. فقال إن الفقراء ثائرون .. ثائرون ويتقدمون في جموع منظمة عبر الصحراء ....

ثم أضاف في لهجة ذات معنى:

ـ" لا أريد أن أثير ذعر أحد لكن ربما نطلب منكم الفرار في أية لحظة !"

ـ"ومتى ؟"

ـ"عندما تصلنا طائرات الهليوكوبتر التي طلبناها .."

قال له مراد في توتر وقد بدأت شفته السفلى ترتجف:

ـ"يجب أن تحموني .. سوف أدفع لك مكافأة خاصة .."

قال مايك بطريقته الأمريكية التي تستنسخ رعاة البقر:

ـ"أنا أتقاضى راتبي عن حماية يوتوبيا كلها، وهو كاف لي.. لا تقلق"

كدت أصيح في مراد: لماذا ترتجف ؟

لم لا تكون أكثر كبرياء ؟

لم لا تكون أكثر وقارًا ؟

ما أتوقعه من أبي – لو كان حقًا أبي – هو أن يغضب ولا يخاف .. يحتقر ولا يرتجف .. يغتاظ ولا يقلق.. يشتم ولا يلوم.. الرحيل ؟...

الشتات ؟

هذا لن يكون .. هذه أرضي وهذا عالمي .. ولدت هنا .. لو كان أبي قد سرق هذه الحقوق فهي قد صارت لي بحكم الوراثة، ولن أتخلى عنها من أجل أمثال (جابر) والمتسولين وعاهرات الأزقة ..

* * *

هرعت إلى البوابات ..

لارين تناديني ..

جرمينال تناديني ..

رودجرز يقول لي أن ابتعد ..

لكني أشق طريقي بين الجند الذين اتخذوا أوضاع تأهب للقتال وأعدوا قنابل الغاز والبازوكا ..

لا أحد منهم يجسر على التعرض لي لأنهم يعرفون من أنا، لكنهم يحاولون منعي في غير حماس..

أرفع رأسي لأرمق خارج البوابات ..

فأشهق ..

رأيتهم هناك على مدى الأفق قادمين .. يحملون المشاعل ويصرخون غضبًا ..

بعد ربع ساعة سيكونون هنا ..

سيكونون بيننا ..

بيومي ومتولي وعبد الظاهر والسرجاني وصفية وعواطف وعزة ومينا وزينهم وشحاتة وعباس وصفوت وعبد الله ومرسي وعدنان وزلطة و ....

كلهم هنا ....

مايك يقول لي:

ـ"ابتعد الآن من هنا .. اتفقنا ؟.. إن بعض الطلقات سوف تطفئ حماسهم .. بعد أول خمسمائة قتيل سوف ينظرون للأمور بشكل مختلف..."

انتـــزعت البندقـــية الآلـــية مـــن يد جندي المارينز الواقف جـــواري، وصوبتها نحو كتلة البشر القادمة في الأفق .. لم أفطن إلـــى إننـــي لم أجرب هذا من قبل، ولم تفت من شجاعتي الضربة القوية التي تلقيتها في ساعدي لدى الارتداد ..

هكذا رحت أطلق النار ..

أطلق النار ..

أطلق النار..

"*في لحظة كتلك أحبك حقا ..*

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

أطلق النار ...

أطلق النار..

" سففنى الحنضل واتعسنى

رأينا خلف خلاف..

احبسنى او اطلقنى وادهسنى

رأينا خلف خلاف"

تمت

تجليات أدبية

كنت أقول لهم:

ـ"هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب ..! لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أورويل وهـ. ج .ويلز .. لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون ... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيراً حتى لو إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم" ! لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق ..

لا يهتمون البتة ..

إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه ..

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف : أحمد اللباد

